الياس خوري

رحلة غاندي الصغير

رواية

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب - بيروت

مكتبة
t.me/soramnqraa

رحلة غاندي الصغير

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٨٩

إليكما

إلى عبلة وطلال

«وما الوجه إلا واحد غير أنّه
إذا أنت عدّدت المرايا تعددا

ابن الرومي

- ١ -

لكنهم يتكلمون.

أرى أمامي صورهم وهي تتلاشى خلف عيونهم. عيون تتلاشى ماء كثير يغطي كل شيء. وأصوات بعيدة كأنها بعيدة. أضع صورٍ أمامي وأستمع. لا أعرف من يحكي ومن يسمع. أنا الذي يحكي. أنا الذي حكى طول الوقت. لكني غير متأكد. هل هو صوتي أم هي الصورة؟ لماذا الصور هكذا؟ أرى صورهم وهم يتلاشون كالماء. الماء لا يتلاشى، الماء يأخذك ويمضي. وهم في الماء. كلّهم يشبهون الماء. أروي الحكاية والحكاية لم تنته. الحكاية هي مجرد أسماء. عندما عرفت أسماءهم عرفت الحكاية. عبد الكريم، اليس، سعاد، القسيس أمين، الاميركاني دايفيز، الكلب، الحلاق، اسبيرو أبو طاقية، سليم أبو عيون، الدكتور عاطف، الدكتور نسيب، الامبرزاريو أبو جميل، الملازم طنوس الزعيم، الكلب الثاني، مدام نهى عون، حصن، رالف، غسان، ليليان صباغة، قسطنطين مخباط، أبو سعيد المنلا، الزعيم الأوحد، فوزية، حصن بن عبد الكريم، عبد الكريم بن حصن، السرياني حبيب ملكو، ابن العيتاني، والعسكري وإلى آخره إلى آخره. . . والروسية البيضاء وإلى آخره. . . كلهم ماتوا، ذهبوا إلى هذه الإلى آخره ولم يرجعوا. لا أعرف إذا كانت نجاة ماتت، لكن الأكيد أن الفران العجوز رشيد مات. والباقون لا أعرف. حتى موت عبد الكريم، الذي يفتتح الحكاية كلها، ليس مؤكداً. أنا لم أره يموت. في الحقيقة لم أكن حين مات. وحين ذهبت إلى بيته لأزوره لم أجد له

أثراً. لا هو ولا زوجته ولا ابنته ولا الحلاق. ولم أفتش عليهم. تعرفت إلى أليس في فندق رخيص اسمه فندق «سالونيكا»، اعتقدت عندما ذهبت أول مرة إلى الفندق أن صاحبه يوناني من جبل آثوس المليء بالرهبان. لكنه كان مجرد فندق صغير، يقع قرب بناية «ستاركو» التي هدمتها القذائف، ومليء بالمومسات المتقاعدات وشغّيلات البارات والكزليات وبعض الجنود. وكانت اليس خادمة في الفندق. هي قالت لي إنها خادمة، لكني لا أعرف. ولا أعرف لماذا روت لي كل تلك الحكايات. وعندما ضيّعت أليس ولم يعد الفندق قائماً سنة ١٩٨٤، تذكرت عبد الكريم، وقررت أن أكتب هذه الحكايات. واكتشفت أن ما روته لي أليس لم يكن كذباً. المرأة العاشقة لا تكذب. أليس لم تكن عاشقة ولم تكذب. هكذا كانت أليس، تكذب كما يفعل كل الناس، لكنها أخبرتني كل شيء، وكان كل شيء صحيحاً.

ضاعت أليس وبدأوا يموتون أمامي. هل أنا من يقتلهم، أم أنا مجرد راوٍ يخبر حكاياتهم؟

أمشي، وظلّ عبد الكريم يمشي إلى جانبي. أرى جسمه الصغير وأسنانه المكسورة ورقبته الرفيعة السمراء. أرى كل شيء. وحين أسأله عن أليس أكتشف أنه مجرد ظلّ. صار عبد الكريم ظلاً يملأ عيني. وعندما مات لم يعرف أحد أنه مات. مات حين أصبح الموت بلا ثمن.

«الموت كان دائماً بلا ثمن»، قالت أليس وهي تروي لي حكايته. لكنها كانت تكذب. فهي تعرف أن الموت له ثمن وهو الثمن. قالوا إنه مات برصاصة طائشة. قالوا هرب من بيته فقتلوه. قالوا إنه كان يمشي على الطريق، فأطلقوا عليه رصاصة في ظهره. لكن بعد موته اختفى

الجميع. حتى أليس اختفت. انتظرت سنتين لكنها اختفت. ذهبت أليس إلى فندق «سالونيكا» كي تشتغل خادمة، وكان صاحب الفندق يعطف عليها، «إنها كنز»، قال لي وهو يغمز بعينه اليسرى. وأنا لم أكن أفعل شيئاً. كنت أجلب لها قنينة عرق. أصل إلى الفندق فأراها جالسة تنتظرني في البهو بين جنود ورجال يمضغون الطعام ويتثاءبون. تأخذني إلى غرفتها فأرى يديها المرتجفتين المليئتين بالشرايين السوداء. وحين أصبّ لها كأساً وتشربه دفعة واحدة، تتوقف الارتجافة وتحكي. وأنا أسافر في كلماتها. قالت إنني مثل أولادها. «أنتم أولادي»، تقول لي ولجميع الجالسين. فيضحك صاحب الفندق وهو يقول: «لا يا ستي إحنا مش أولاد شرموطة»، ويغرق الجميع في الضحك، وأليس تضحك. وأنا أنظر إليها وأخاف. من هي هذه المرأة؟ أنا أعرف عبد الكريم عن طريق المصادفة، أما هي فلا أعرف كيف أعرفها. عبد الكريم الملقّب بغاندي الصغير كان ماسح أحذية، أنا لم أمسح حذائي عنده، لكنهم أخبروني عنه، والتقيت به، وتحدّثنا طويلاً، أما هي فلا أعرف. ربما المصادفة أيضاً. امرأة في الستين من عمرها، لا شيء يذكّر بأنها كانت امرأة. نهدان ممسوحان، جسد نحيل يغيب تحت فستانها الأسود الطويل، عينان نصف مغمضتين، أنف طويل، شفتان رفيعتان، ويدان ترتجفان بشكل دائم. امرأة لا شيء فيها سوى أنها تذكّر بامرأة أخرى. دائماً هكذا، نسافر عبر المرأة لأنها تذكرنا بامرأة كنا نعرفها من قبل. لكل امرأة مرجع نسائي في ذاكرتنا. وأليس أيضاً. إنها تشبه فيكتوريا التي كان يركض خلفها أنطون الزبال المجنون، وهو يحاول تقبيلها، لأن إميل الدكنجي وعده بليرة إذا فعل ذلك. ربما كنت أسافر إلى فكتوريا التي أشتهيتها ككل فتيان الحيّ بعيون آبائهم. «كل النساء ذكريات»، حاولت أن أقول لأليس وهي تخبرني عن الملازم

طنّوس. لكنها قالت لا. معها حق. يومها لم أفهم رفضها لأني كنت جباناً. الآن أعرف، كل النساء ذكريات ما عدا المرأة التي تكون احتمالك، فأنت رجل لأنك احتمال امرأة. المرأة التي لا تذكّرك بامرأة قبلها هي احتمالك الأنثوي. هذه لا تسافر عبرها ولا معها، هذه تقتلك. لا تستطيع كتابة قصتها لأنها تأخذك في رحلة الموت الأخيرة.

وأليس هي التي أخذتني إلى رحلة عبد الكريم وهذه الأسماء والوجوه. والآن أسأل، من سافر ومن بقي؟ هل أخذتني في رحلتها ورحلة عبد الكريم، أم أنني كنت مجرد مراة؟ لا أعرف. الذي أعرفه أنها سافرت إلى الموصل وبغداد وحلب قبل أن تستقرّ نهائياً في بيروت. أما عبد الكريم الملقّب بغاندي الصغير فلم يسافر. بقي عبد الكريم ملتصقاً بصندوقه الخشبيّ أمام بوّابة الجامعة الأميركية. بقي في بيروت واشتغل كلّ المهن قبل أن يموت فوق صندوقه. لكن عبد الكريم بعد أن بلغ نهاية رحلته لا يعرف أنه سافر أكثر من كل ماسحي الأحذية في العالم. لا لأنه أتى من «مشتى حسن» في عكار إلى بيروت، بل لأن بيروت هي التي تسافر. تبقى في مكانك وتسافر. فعوض أن تسافر أنت تسافر المدينة. انظروا إلى بيروت، من سويسرا الشرق إلى هونغ كونغ إلى سايغون إلى كلكوتا إلى سيريلنكا. كأننا برمنا العالم في عشر سنوات أو عشرين سنة. بقينا في مكاننا والعالم هو الذي برم حولنا. كل شيء تغيّر من حولنا ونحن تغيّرنا.

عبد الكريم تغيّر كثيراً قبل أن يموت. لكن الموت لم يمهله كي يرى المدينة بعد أن تحولت إلى حالتها الهندية الراهنة. وربما نحن أيضاً، لن يمهلنا الموت كي نرى تحوّلات لن تخطر لكم على بال. على كل حال فالرحلة تتمّ أردناها أم لم نردها.

وأنا الذي يحكي ويكتب، أريد أن أسافر مع هؤلاء، فأكتشف نفسي وحيداً في زاوية معتمة. أبحث عن إيقاع رحلة تمّت منذ أعوام قليلة، فأشعر أنني أحفر في بئر عميقة. أنا لا أحفر، البئر تفتح فمها وتأخذني إليها. وكما سافر عبد الكريم في رحلته، كما سافرت أليس وأمين وملكو ونهى وليليان وأبو سعيد وريما وحصن و. . . أريد أن أسافر. فاكتشفت أنني أحفر في بئر تبتلعني.

- ٢ -

قالت أليس إنه مات.

«جئت ورأيته، غطّيته بالجرائد ولم يكن أحد، زوجته اختفت، كلهم اختفوا، وبقيت وحدي».

قالت أليس إنها أخذته إلى المقبرة، ورأت الناس بلا وجوه. «صار الناس بلا وجوه» قالت لي. تكلمت معهم ولم تسمع أجوبتهم ثم تركتهم وراحت. وهكذا انتهت الحكاية.

«أخبريني عنه»، قلت لها.

«كيف أخبرك»، جاوبتني. «أنا كنت أعيش معه ولا أعرف. عندما تعيش لا تنتبه. أنا لم أنتبه لشيء، فقط لا أعرف». هزّت رأسها ورددت جملتها «بعرف إنه راح وراح ببلاش».

أذكر كلمات أليس وأحاول أن أتخيل ما حدث فأكتشف ثقوباً في الحكاية. كل الحكايات ملآنة بالثقوب. لم نعد نعرف أن نروي، لم نعد نعرف شيئاً. وحكاية غاندي الصغير انتهت. الرحلة انتهت والحياة انتهت.

هكذا انتهت حكاية عبد الكريم حصن الأحمدي المغايري، الملقب بغاندي الصغير.

استفاق غاندي الصغير، غـاندي الصغـير لم ينم تلك الليلة. كانت ليلة مختلفة عن كل ليالي ذلك الصيف الغريب. استفاقت بيروت كأنها لم تنم. وكان الملح. كل الناس قالوا إن الملح الأبيض كان مرشوشاً فوق الشوارع. كأنها أمطرت ملحاً. لكنها لم تمطر. والمدينة كانت غارقة في السكوت. بيروت تسبح في الظلام وتغرق. شعر غاندي الصغير أن المدينة تغرق. كان السكوت يتسلق على رقبة الرجل الصغير الجالس وحيداً في ركنه المعتاد في قبو بناية «برج السلام» الذي صار مسكنه منذ ست سنوات. كان غاندي الصغير خائفاً. خوف لا يشبه تلك الرعشة التي تدكّ ظهره وهو يستمع إلى أصوات الطائرات المغيرة على المدينة. إنه خوف آخر. خوف يغلق العينين بحجرين كبيرين. كان الـرجل الصغير عاجزاً عن فتح عينيه، لكنه لم ينم. يرى ما يشبه ظلال زوجته القصيرة السمينة وهي تجول في الغرفة كأنها تريد أن تحكَي ولا تحكي.

فجأة بدأ ذلك الهدير الذي كسر مفاصل الأبواب.

عشرات الطائرات كانت تحلّق منخفضة، تأكـل الهواء وتكـاد تلامس رؤوس البنايات. غاندي الصغير لم يتحرك من مكانه. يبدو أنه نام وهو يعتقد أنه لم ينم. جاءه النوم وسط شعوره باليقظة، فلم يعد يعرف هل كان يرى أم كان يحلم. فتح عينيه الصغيرتين فلم ير شيئاً. وجد نفسه جالساً في زاوية الغرفة حيث كان. الخوف يبتلعه. يستند إلى الحائط فيشعر أن الحائط يكاد يسقط. فتح عينيه فلم ير شيئاً. نام ولم ير شيئاً. وكان الظلام الذي يخترقه بياض بدايات الفجر يعطي الأشياء لوناً غريباً. لحس شفته بلسانه، فامتلأ فمه بطعم الملح. أمس أمطرت

ملحاً. غانـدي الصغير رأى الملح في الشـوارع، رأى ذلك البيـاض المفروش كأنه لسان حيوان ميت يمتدّ في الشوارع.

«أنتم ملح الأرض». قال للسرياني العجوز حين كان في دكانه مسـاء أمس. كان ذلـك في الرابـع عشر من أيلول ١٩٨٢. الجيش الاسرائيلي على أبواب بيروت، وانفجار الأشرفية جعله يشعر أن المدينة سوف تسقط في البحر. وتذكر القسيس أمين، تذكره شاباً يقف أمامه ويمدّ حذاءه الأبيض والبنيّ، وغاندي كـان محتاراً كيف سيـدهن هذه الثقوب الجلدية دون أن يثير غيظ القسيس. تذكر الحذاء ووجه القسيس الشاحب الأسمر وأسنانه البيضاء، وهي تلفظ تلك العبارة التي يعيدها القسيس بشكـل دائم: «أنتم ملح الأرض، فإذا فسـد الملح فبمـاذا يُملّح»؟ القسيس يتكلم من أسنانه، وغداً كيف سيحكي عندما يهرم وتسقط أسنـانه؟ ورأى غـاندي الصغـير القسيس يهرم ويتـوقف عن الكلام. رآه أمام كنيسة «سيدة النياح» وهو يقف كالمعتوه ولا يحكي إلا الصلوات اليـونانيـة. تذكـر القسيس ونسي اسمه، نسي لمـاذا سمّوه غاندي، فهو لا يعرف من هو غاندي هذا. وعنـدما أخبـره الاستاذ الاميركاني الطويل أن غاندي كان زعيماً للهند، وأنه كان بطلاً، انفجر غاندي الصغير بضحكة مكتومة. فهو منذ أن اشتغل في مطعم سليم أبو عيون لم يعد يجرؤ على الضحـك، صارت ضحكتـه تشبه التثـاؤب. وأمس عندما سمع خبر الانفجار وموت رئيس الجمهورية(*) جاءته الضحكة إياها. فترك ضحكته أمام دكان اسبيرو أبو طاقية وعاد راكضاً إلى البيت.

(*) انفجار بيت الكتائب في الأشرفية، ١٤ أيلول ١٩٨٢، الذي أودى بحياة رئيس الجمهورية المنتخب، بشير الجميل.

صاحب الدكان الستيني، الذي يجلس طيلة الوقت خلف طاولته ويكشّ الذباب من حوله كان يتحدّث عن نهاية الحرب. والسرياني العجوز يوافق. وغاندي كان يكره هذا السرياني الكبير الأنف، الذي ينحني للجميع. صحيح أنه كان يمسح أحذيته وأحذية أولاده، لكن هذا انتهى من زمان. فغاندي الصغير ترك مهنة مسح الأحذية من خمس سنوات. لم تكن المرة الأولى التي يترك فيها مهنته، فقد تركها قبلاً عندما فتح مطعماً على حساب الكلب الأميركاني. يذكر حكايته مع المستر دايفيز، أستاذ الفلسفة في الجامعة الاميركية في بيروت، الذي عرّفه على القسيس أمين، ودعاه للصلاة في الكنيسة. غاندي لم يذهب إلى الكنيسة إلا مرة واحدة، لكنه صار صديقاً لكلب المستر دايفيز. ومن خلال هذه الصداقة تحول إلى صاحب مطعم.

جاءه المستر دايفيز مرة وطلب منه أن يساعده على إطعام الكلب.

«أنا ما عندي شيء، عندي صبابيط»، قال غاندي.

لكن الاستاذ الاميركاني، الذي كان يتكلم العربية بلهجة أبناء بيروت، طلب منه أن يجلب كيس جنفيص ويتبعه.

تبعه غاندي إلى المطعم وصار يأخذ بقايا الطعام ويضعها في الكيس، ثم يذهب بها إلى بيت المستر دايفيز. ومن الكيس جاءته الفكرة، صار يأخذ معه عدة أكياس، يعطي كلب دايفيز كيساً واحداً ويذهب بالأكياس الأخرى إلى بيته في النبعة. وهناك أمام البيت فتح مطعماً: لبنة، جبنة، لحم، كفتة، حمص، خضار إلى ما هنالك. صحن اللبنة بعشرة قروش، صحن اللحم بنصف ليرة، والله فتحها، وعاش غاندي على حساب الكلب. وحين مات الكلب، اقترح على المستر دايفيز أن يشتري له كلباً ثانياً. لكن دايفيز كان حزيناً، وقيل إنه سيطلّق

زوجته، وقيل إن الزوجة قتلت الكلب لأنها كانت تغار منه. هذا لم يمنع غاندي من شراء كلب «شيان لو» صغير وتربيته في بيته، والمشاكل التي كادت تجنّن زوجته، وصراخ سعاد. كل هذا لم ينفع لأن المستر دايفيز سافر، والقسيس رفض أن يأخذ الكلب، والكلب صار يحب غاندي، وغاندي اضطر إلى قتل الكلب والعودة إلى مصلحة البويا.

أما هذه المرة فقد ترك المصلحة إلى الأبد، ودبر حياته بالتي هي أحسن كمسؤول عن نظافة الحيّ. فوزية زوجته، تقول إنه انتقل من مهنة البويجي إلى مهنة الزّبّال. لكن هذا غير صحيح، هو الآن مسؤول، أما الزبال فغير مسؤول. الزبال يكنس الشوارع ويلمّ النفايات ويمضي. أما غاندي الصغير فكان مسؤولاً عن الزبالة من طقطق للسلام عليكم. يوزع أكياس النايلون، يلمّها، يرميها، ويراقب عدم الإخلال بالنظام.

كانوا يجلسون أمام الدكان ويتحدثون عن نهاية الحرب. وغاندي الصغير يقف لا لأن لا أحد دعاه إلى الجلوس، ولا لأنه فضل الوقوف، بل لأنه لم يكن يعرف ماذا سيفعل وماذا سيقول. بقي واقفاً ولم يجلس. يستمع إليهم وهم يثرثرون. السرياني يتحدّث عن طعام القطط الذي فقد من الأسواق خلال الحصار الطويل، والست نجاة تتحدث عن فائدة اليود الذي يمتلىء به البحر، وغاندي يحاول أن يفهم سبب سعادتهم. ورأى الوجوه تستطيل. أذاع الراديو خبر انفجار الأشرفية وبدأ الناس يتراكضون إلى بيوتهم. الوجوه صارت مستطيلة كأنها أقنعة. الأقنعة تركض في شوارع المدينة، والشوارع تصبح خالية. حتى وقع أقدام الناس لم يعد مسموعاً. الدكنجي أغلق دكانه، والست نجاة ركضت إلى بيتها، ووجد غاندي نفسه يمشي في شوارع المدينة دون أن يدري إلى

أينَ يذهب. فهم هذه المرة أن الحرب لم تخلص. عندما رأى ابنه يبكي في الشارع منذ ثلاثة أسابيع اعتقد أن الحرب خلصت. «الحرب خلصت»، صرخ غاندي وهو يمسك ابنه من كتفه، ويأخذه إلى البيت. بكاء الابن كان إعلان نهاية الحرب. الفدائيون الفلسطينيون ذهبوا إلى البحر والجيش الاسرائيلي على أبواب بيروت.

«كل شيء انتهى»، قال لابنه «بكره رح يرجع الاميركاني الطويل، ويرجع كل شيء، ونرجع متل ما كنّا».

قال غاندي لزوجته في الليل، بعد أن أطعم ابنته سعاد، عبر إجبارها على فتح فمها وتهديدها بالضرب، والابنة تهرب وتتمسّك بالحيطان، ثم قبلت. جلست كالدجاجة أمامه، وصار يطعمها كأنه يحشوها. استلقت على الفراش الموضوع على الأرض ونامت. يومها قال لزوجته إن كل شيء عاد كما كان، وإن ابنه الحلاق يستطيع أن يبدأ حياته من جديد.

في ذلك اليوم، صارت الحرب أقنعة على وجوه الجميع. الناس صاروا أقنعة بلا عيون، يمشون كالهائمين في شوارع المدينة. وغاندي الصغير يمشي. لم يذهب إلى بيته. هل كان يعلم أنه سيموت، وأنه يقوم بتطوافه الأخير؟ هل صحيح أن الناس الذين سيموتون يشمّون رائحة الموت قبل أن يأتي، فيذهبون إليه؟ هل مشى غاندي إلى الوداع الأخير حين توقّف أمام البار؟ تردّد طويلاً قبل أن يدخل ليجد أليس في مكانها المعتاد، تقف تحت الضوء الأحمر الخافت، وهي تحمل ثلاث زهور حمراء. لم يسألها أين اختفت خلال الحصار، هو نفسه لم يعد يعرف أين كان، ولا يذكر من أيام الحصار سوى أنه نسي كل شيء. نسي الناس والشغل. قالت له زوجته إنه بدأ يخرف لأنه صار ينسى أسماء كل

الناس. لم يسأل أليس شيئاً. اقترب وجلس خلف الطاولة أمامها. قدمت له كأساً من البراندي شربها دفعة واحدة، ووضعت يدها فوق يده اليمنى الملقاة على الطولة، وبدأت تحكي أليس تحكي كثيراً. هذا ما كان سيقوله غاندي لو أخبرني هو القصة. كان سيتأفف من كثرة كلامها ويسكت. أما أنا فوضعي مختلف، فلولا أن أليس تحكي كثيراً لما عرفت شيئاً. ولكن لماذا أخبرها غاندي كل تلك الحكايات؟ هل أخبرها فعلاً أم هي تخترع وتروي على ذمتها؟ تقول إنها هربت من ملهى «البلوآب» يوم حادثة كمال العسكري وأسعد عواد. أنتم لا تعرفون، هي تعرف. هي تقول إن الحرب بدأت في «البلو آب»، وعلى ماذا؟ على لا شيء. «يا حسرتي عليهم، قتلوهم، قتلوا الرجال وتركوا الزعران». ويوم هربت التقت بغاندي الصغير، وهو الذي دبّر لها شغلاً في بار «مونتانا» في الحمراء إلى جانب بناية «برج السلام».

لو لم يمت كمال العسكري، لما التقت أليس بغاندي، ولو لم تلتق أليس بغاندي لما روى لها حكايته، ولو لم يمت غاندي لما أخبرتني أليس القصة، ولو لم تختفِ أليس أو تَمُتْ لما كتبت أنا ما أكتبه الآن.

أمسكت أليس بيده اليمنى وحاولت أن ترفعها إلى شفتيها. سحب غاندي الصغير يده بسرعة. «الموت جايي، الموت مثل الملح»، قال لها.

«شو هالحكي، يللّه قوم روح عند مرتك وولادك»، قالت له.

«أنا بعرف، أنا بشم الموت»، قال، ونهض.

لم تسأله إلى أين، تركته يذهب ويموت. فهي تعرف، قالت لي إنها كانت تعرف أنه سيموت. «خاف من الموت فراح لعنده ومات»،

جاوبتني أليس، وأمامنا كان يجلس صاحب فندق «سالونيكا»، بعينيه الشاردتين في اللاشيء.

ذهب الرجل إلى بيته وحاول أن ينام. لا أحد يعرف بِمَ فكر طيلة تلك الليلة، هل خاف على ابنه حصن لأنه لم يأتِ، أم جاءته حياته كشريط السينما كما يقول كتّاب الروايات؟ الذي نعرفه هو أنه استفاق باكراً وهو يشعر أنه لم ينم. هكذا قالت ريما انه قال. كان هدير الطائرات في أذنيه. أعدّ فنجان قهوة حلوة كما كان يحبها، وسمع طرقاً خفيفاً على الباب. كانت زوجته نائمة، وابنته تتململ في فراشها كأنها لا تنام. فتح الباب فرأى ريما. كانت تقف بشعرها الأشقر المجعّد فوق رأسها كأنه قبعة، وتتردّد في الدخول. سألت عن رالف، وعندما جاوبها أنه ليس هنا أرادت أن تمشي. دعاها غاندي للدخول وشرب فنجان قهوة، وقال لها إن ابنه لم ينم في البيت، ربما نام في صالون الحلاقة. كانت كأنها لا تسمع، تأففت من القهوة لأنها حلوة، ثم سألت عن الأخبار. «اليهود في بيروت»، قال غاندي، «وبشير الجميل مات». «مات»، قالت بصوت منخفض، وانفجرت بالبكاء. كان كل شيء فيها يبكي. لم يفهم غاندي هل تبكي من اليهود أم لأنها تخاف على حصن، أم لأنها حزنت على الرئيس القتيل. كانت تبكي بشكل غريب. كل جسمها كان يرتجف وفنجان القهوة ينزلق من يديها، وهي تهتزّ كأنها ترقص. وضعت الفنجان على الطاولة وذهبت مسرعة، جذعها منحنٍ إلى الأمام، وشعرها المجعّد يهتزّ فوق رأسها كأنه قطع شقراء متناثرة ألصقت فوق الرأس. لم يستوقفها غاندي. تركها تمضي وفكر في مصيره. فتح الترانزستور فسمع أخبار الدخول الاسرائيلي إلى بيروت، وبدأت أصوات الانفجارات. لم يفكر بابنه حصن، ولا بابنته

الملقاة على الأرض، ولا بأحد. فكر بعلبة البويا، نهض مستعجلاً إلى العلبة المرمية بإهمال في زاوية الغرفة وبدأ ينظفها.

كان غاندي يفكر بأليس دائماً. كان منذ ذلك اللقاء يشعر بأنه المسؤول الوحيد عنها. أليس كانت قوية بما فيه الكفاية. فمنذ اللحظة التي أخذها فيها غاندي إلى بار «المونتانا» في الحمراء وهي تعيش بشكل مستقل. صحيح أن حسن الزيلع هو الذي دبّر المسألة، لكن أليس استطاعت أن تتأقلم، وتنهي مهنتها كبائعة للزهور في البار. الزبائن تغيّرت هذه الأيام. جنود ومجموعات من المسلحين يأتون إلى البار ويكرعون كؤوسهم كأنهم يشربون زيت الخروع. ذهبت أيام المزمزة والزبائن الذين يجلسون ويروون حكاياتهم ويستمعون إلى حكايات البنات. هذا الجوّ الجديد لم يكن يعجب أليس لكنها قبلته، واستطاعت أن تجد بعض الزبائن لأزهارها وأن تعيش.

بعد تسكع دام سنتين نتيجة إغلاق «البلو آب»، دبّر لها غاندي الصغير هذا البار بواسطة الزيلع. والزيلع قصّة بحد ذاتها، فهو بعد أن قتل أخته الكبرى وحاول أن ينتحر، انضمّ إلى أحد تنظيمات الحرب الأهلية، وتنقّل في جميع التنظيمات، وانتهى مسؤولاً عن شعبة البارات.

أليس تقول إن عينيه تقطران براءة، رغم شحوبه ولحيته نصف الحليقة وادّعائه الإجرام بشكل دائم. وفي هذا البار سوف تلتقي أليس بغاندي بشكل دائم، حيث يأتي كل مساء تقريباً ويشرب كأس البراندي ويذهب إلى بيته. وأليس لا تستطيع أن تنسى غاندي. «حتى أبي نسيته، بس غاندي لا، كان شيء تاني، ياعيني رجّال ما كأنه رجّال، رجال كأنه كيف بدي قلّك، كأنك قدام المراية. أنا بعرف كل الرجال،

من أبي للرقص بالبارات وأنا عمري ١٢ سنة، لهيداك الروسي الأبيض شو إسمه، يللي كان يشم الأبيض ويرقص على الطاولات كأنه ملك، وكان ملك، بس قالوا إنه جاسوس إسرائيلي، كلّه صار هالأيام إسرائيلي، بس معليش. وبعدين الليوتنان طنّوس ومرته والامبرزاريو أبو جميل يللي باعنا واشترانا، وبعدين الزعيم الأوحد، مش رح خبرك عن الزعيم الأوحد لأنك رح تفكرني عم كذّب. بس أنا بكذب يا أستاذ؟ بعدين أنت مثل إبني، وغاندي الله يرحمه كان إبني، ما بعرف شوبني، حتى الزعيم الأوحد لمّا مسكته من تحت وصرخ حسّيته مثل إبني. أنا ما عندي أولاد، بس لمن بتذكّرهم بحسّ إنه الحليب رح يوقع من صدري. بس القسيس، القسيس غير شكل، هيدا رجل دين، وأنا معه كنت غير شكل، أخذته، كان يا حرام نسي كل شيء. تصور نسي إنه قسيس. قال لي يا أليس أنا مرتي إسمها أليس، بس أنا ما صدقته، قطعت فيه كل المعابر وأخذته على مأوى العجزة في الأشرفية. وهونيك صار يللي ما بصير، بعدين بخبرك. شو كنت عم قول. كنت عم بحكي. أنا على طول بحكي. هيك كان يقلّلي الليوتنان طنوس، بس طلع جبان، المهم يا ابني شوبدّك لخبرك».

أستمع إليها، أراها أمامي كأنها ليست أمامي، تتلاشى في كلماتها، كأن جسمها يتلاشى والحكايات تتحوّل إلى حكايات.

«كمال العسكري كان رجّال. الله يستر عرضه، ستر عرضنا كلنا. كان ما حداً يسترجي يقرب. منشان هيك قتلوه. كلهم قتلوه وتركوه يبلعط بالبار. بس يا حرام يا غاندي يا عبد الكريم، ما بعرف ليش كان عنده إسمين، كأنه كان أكثر من رجال. كان مثل المراية ولمّا مات شعرت أن المراية وقعت. وفعلاً وقعت، وهلق مثل ما شايف،

خلص بيع الزهور. وصاحب أوتيل «سالونيكا» سمج وأنا ما بحبّه، وأنا شو صرت، صانعة، لو بتعرف يا أستاذ كيف كنت، بس أنت ما بتعرف، بتفكر أنه هلق يعني هلق بس يا ابني مش صحيح».

وتنهي أليس حكايتها بمشهد الرجل ميتاً.

وجدوه ملقى وإلى جانبه صندوق البويا. قالوا إنه خاف، سمع أن الاسرائيليين يعتقلون الجميع، خاف من الحبس، خاف أن يعود إلى المغارة التي حبسوه فيها من زمان. خاف أن يتهم بأنه تعاون مع الفدائيين، من خلال عمله في حكاية نظافة الحيّ. خاف، حمل صندوق البويا، وضعه في عنقه وتركه يتأرجح من خلال الحزام الجلدي العتيق ومشى. وكانوا في كل مكان، صرخوا به أن يقف، لم يصرخوا، لا أحد يعرف، لكنهم أطلقوا النار، تركوه يسقط فوق الصندوق. الرقبة معلقة على حافة الصندوق والجسد ينحني.

جاءت أليس وغطّته بالصحف. جاءت من البار حيث نامت ليلتها. سمعت الرصاص فركضت، رأته ورأت الماء الذي يسقط فوق المدينة. غطّته، وكان الملح الذي ينتشر في المدينة يذوب وسط حبات الشتاء، والأوراق التي تغطيه تتبلّل وتنكمش. وأليس واقفة بثوبها الأسود الطويل، والشتاء ينهمر فوق مدينة أنهكها الحصار.

قالت أليس: «كله كان من زمان».

قالت أليس، «أنت مفتكر أنه أنا أليس، بس مش صحيح يا ابني، أليس كانت، هلق يعني كان، وكان يعني من زمان، وكله كان من زمان، ما في شي إسمه هلق».

لم تقل أليس، كانت تختفي في شوارع يتداعى فوقها المـوت.
بحثت عنها طويلاً ولم أجدها، كأنها راحت ودخلت في الخراب الذي كان يأخذها إليه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- ٣ -

قالت أليس إنه مات.

«جئت ورأيته، وغطيته بالجرائد، ولم يكن أحد، زوجته اختفت، كلهم اختفوا، وبقيت وحدي».

قالت أليس إنها أخذته إلى المقبرة، ورأت الناس بلا وجوه. «صار الناس بلا وجوه»، قالت لي: تكلمت معهم ولم تسمع أجوبتهم ثم تركتهم وراحت. وهكذا انتهت الحكاية.

«أخبريني عنه»، قلت لها.

«كيف أخبرك» جاوبتني. «أنا كنت أعيش كأنني أعيش معه ولا أعرف. عندما تعيش لا تنتبه. أنا لم أنتبه لشيء، فقط لا أعرف». هزت رأسها ورددت جملتها «بعرف أنه راح وراح ببلاش».

أذكر كلمات أليس وأحاول أن أتخيل ما حدث، فأكتشف ثقوباً في الحكاية. كل الحكايات ملآنة بالثقوب. لم نعد نعرف أن نروي الحكايات، لم نعد نعرف شيئاً. وحكاية غاندي الصغير انتهت. الرحلة انتهت والحياة انتهت.

هكذا انتهت حكاية عبد الكريم حصن الأحمدي المغايري، الملقب بغاندي الصغير.

ولد غاندي الصغير لا يذكر كيف، وسماه أبوه عبد الكريم لأنه يدعى حصن ولأن والده كان عبد الكريم، وجده حصن ووالد جده عبد الكريم، هكذا وصولاً إلى سفينة سيدنا نوح. لكن سيدنا نوح الذي هرب إلى سفينته لم يكن يتخيل ماذا سيحصل لأحد أحفاده. فسيدنا نوح وأمثاله ممن استطاعوا ويستطيعون الهرب، يجهلون أن الحكاية الحقيقية هي حكاية الناس العاجزين عن الهرب. ولأننا جميعاً نتماهى مع الهاربين وإلا لافترسنا الخوف من الموت، فإن حكايات العاجزين عن الهرب تبدو لنا غرائبية، وغير قابلة للتصديق. تبدو الحكايات بعيدة، ونحن لا نريدها إلا كحكايات. هذا هو السبب ربما الذي دفعني إلى صداقة عبد الكريم حصن الأحمدي المغايري الملقب بغاندي الصغير.

كنت أقف أمامه وأتخيل نفسي وأنا أضع حذائي على لسان صندوقه الخشبي، حين سألته عن اسمه.

«إسمي غاندي»، قال.

«أهلاً بالسيد غاندي».

قلت إن الرجل هو ابن مثقف من نهاية العهد العثماني، عاش في زمن الانتداب وأراد أن يصنع من إبنه زعيماً للاستقلال.

«تشرفنا»، قلت له، وسألته من أين؟

«من عكار»، جاوبني.

و«الوالد، كمان كان يشتغل بالمصلحة».

ابتسم. «لا، الوالد صاحب دكان بالضيعة، وعنده شوية أرزاق ومعزى».

تذكرت غاندي الحقيقي ومعه المعزاة التي بدأ بها ثورته ضد الانكليز، وحكايات الحاج أمين الحسيني عندما أهداه غاندي معزاته، واستبشر يومها الناس، وقالوا تحررت فلسطين.

لكن غاندي خيّب أملي، فوالده لم يسمه غاندي، سمّاه عبد الكريم، وهو لم يسم ابنه نهرو بل سماه حصن. والابن لم يعجبه اسم حصن فسمى نفسه رالف عندما اشتغل في صالون الحلاقة. ومع بداية الحرب احتار ماذا يفعل، فسمى نفسه غسان، لكن الاسم لم يمش، فعاد إلى حصن فضحكوا عليه، وأخيراً يئس وترك الناس يسمونه ما يريدون.

ربما تسميه رالف، ووالده يسميه حصن والست نهى تسميه غسان، وهو يقبل بالأسماء الثلاثة. أما غاندي فالمستر دايفيز هو الذي أعطاه هذا الاسم. قال إنه يشبه غاندي فصار أساتذة الجامعة الاميركية يأتون للتفرج عليه وصار اسمه غاندي. أما هو فيفضل أن يدعوه الناس أبو حصن. لكن لا أحد يسميه هذا الاسم. حتى فوزية زوجته لا تسميه إلا يا رجال. ثم اقتنع بالاسم عندما أضيف إليه لقب الصغير. وهذا من فضل القسيس أمين. فصار هناك غاندي الهند وغاندي الصغير الذي يعرفه جميع أهالي رأس بيروت من مشيته المفركشة وصندوقه الخشبي المعلق في رقبته. كان البويجي الوحيد الذي يعلق صندوقه في رقبته. «كأنه حبل مشنقة»، قال له مرة القسيس أمين. فضحك غاندي، أو ابتسم على وجه الدقة، لأنه تعلم أن يبتلع ضحكته، وفكر بأن الموت شنقاً لا بأس به. فهو لا يؤلم. هكذا قال له الدكتور عاطف وهو يسأله بعد أن عاد من الفرجة على شنق التنير.

والتنير هذا، كان قبضايا معروفاً، لكنه أخطأ. رمى ماء النار على وجه المرأة التي يحبها ثم قتل زوجها، وزوجها محام طويل عريض فشنقوه. كم هو مختلف عن العسكري وعن شهامته وأخلاقه العالية. المسألة ليست في الأخلاق، المسألة هي الحبل. الفرق بين التنير والعسكري أن الأول مات مشنوقاً والناس تتفرج عليه، وهو يصرخ ويشتم، ويقول إن المرأة كانت تخونه وأن زوجها كان كلباً، وأنه ضحية. بينما مات العسكري مرمياً على الأرض في ملهى «بلو آب»، تركوه يبلعط دون أن يلمّه أحد. وحين لمّوه ، كان كل شيء قد انتهى.

وغاندي حين مات، كان كأنه شنق بحزام صندوق البويا. أليس لم تجرؤ على فكّ الحزام عن رقبته، لأن ثيابه كانت منتفخة بالماء. خافت أليس من الاقتراب منه، ذهبت وجلبت جرائد عتيقة ولفته بها وبدأت تولول.

وغاندي لا يذكر كثيراً من الأشياء عن طفولته. عندما حاول أن يتذكر وهو يقف إلى جانب ابن عمه في مأتم والده، اكتشف أنه لا يذكر الكثير من الأشياء عن قريته. كانت القرية بالنسبة له مجموعة من بيوت الطين التي يغطيها شيء أبيض. جاء ولم ير الأبيض، رأى طرقات ضيقة وملتوية، ووجوهاً لا يعرفها. لكنه بكى. سقط في البكاء والناس يتفرجون عليه. كأن بكاء الابن على أبيه صار أمراً مستغرباً. بكى غاندي ولم ير شيئاً. كلمه ابن عمه عن ضرورة الزواج، فوافق، وقرر أن يتزوج ابنة عمه فوزية، وعاد إلى بيروت. لا يعرف غاندي كيف اكتشف أقرباؤه مطعم سليم أبو عيون حيث كان يشتغل. كان قد قرر ترك المطعم، ورائحة المجلى، وأصوات تنهدات الست نجاة، ليشتغل مهنة حرة. جاء ابن عمه وأخذه إلى القرية، وعاد منها ومعه فوزية. فور

وصوله اشترى صندوقاً، وجلس قرب مطعم «جرجورة»، أمام الجامعة الاميركية، والله فتحها.

بعد الدفن مباشرة ذهب غاندي إلى المغارة. رأى فتحة صغيرة وشم رائحة شواء متعفّن. حاول أن يدخل لكنه لم يستطع، حجارة وأشواك وروائح. هنا، في هذه المغارة يبدأ تاريخ العائلة. كم فكر أن يأخذ ابنته سعاد ويدفنها هناك. لكنه يخاف الله، وليس مثل السيد حصن الذي أخذه، وهو يمسك به من كتفه، كأنه يمسك بكلب أجرب ورماه هناك. غاندي كان يعرف أنه أخطأ، لكنه لم يكن يتوقع هذا القصاص. افترسه الخوف، واكتشف كيف تنشلّ القدمان، ويصبح اللسان كقطعة كاوتشوك في الفم. هنا في هذه المغارة مات والد جده، وهنا كان سيموت هو. قصة والد الجد كان يعرفها الجميع، لذلك صار اسم العائلة المغايري. الجد المجنون الذي كان اسمه حصن، جنّ في المغارة ومات فيها. يروى أنه دخل المغارة كي يقتل الضبع. كان الضبع الذي يخيف القرية في ليالي الشتاء، يأتي إلى هذه المغارة وينام فيها. دخل المغايري الجد، بعد أن تراهن مع جميع شباب القرية على أنه لا يخاف. انتظر الليل ودخل، وكانوا يراقبونه من بعيد، الجميع قالوا إنهم لم يسمعوا صوتاً في المغارة، والرجل اختفى. دخل ولم يخرج. وبعد ثلاثة أيام، خرج الرجل والشعر الأبيض يكلل رأسه، وعيناه بيضاوان، ولسانه ثقيل. قالوا جن حصن، ضبعه الضبع وجنّنه. وصار الرجل لا ينام في البيت. عبد الكريم ابنه، أي جد غاندي الصغير، روى لابنه أن والده لم يعد ينام في البيت، صار ينام في البرية ويعوي كأنه كلب أجرب، وبعد أشهر قليلة وجدوه ميتاً أمام باب المغارة.

إلى هذه المغارة أخذ حصن والد عبد الكريم ابنه الذي كان في الحادية عشرة من عمره ورماه هناك.

«كيف يقتل الأب ابنه»، سأل غاندي القسيس أمين، الذي كان يحاول إقناعه بالمجيء إلى الكنيسة والمشاركة في الصلاة.

«الأب لا يقتل ابنه»، قال القسيس، «يأخذه ليقتله، لكن هناك الخروف. إبراهيم أخذ ابنه إسحاق، أنتم تقولون إسماعيل، بسيطة، أخذه لأن هناك الخروف».

«ومن دون خروف» سأل غاندي،

«من دون خروف كانت الدنيا انتهت»، قال القسيس «من دون خروف، يقتل الأب ابنه، ويقتل نفسه. الله خلق الخروف من أجل ذلك، الخروف ضروري كي يكون الأب والابن».

«فهمت، فهمت، بلا خروف مش ممكن». قال غاندي وهو يعود إلى عمله على حذاء القسيس المليء بالثقوب البنية.

«طبعاً يا ابني، لازم تجي على الكنيسة».

لم يكن غاندي يريد إيذاء تلك المرأة، كان يكرهها، لكنه لم يكن يهتم. عاد أبوه إلى البيت ومعه المرأة. كانت سوداء الشعر كبيرة العينين، تنظر كأنها مرعوبة. قيل إن الأب اغتصبها في البرية وجاء بها ليتزوجها. قيل إنها كانت من العرب الرّحل الذين ينتشرون قرب حرش «القموعة»، وأن الرجل تورط بها وخاف من أهلها فتزوجها. صارت الزوجة الرابعة، وكان رقمها الخامسة، غير أن والدة عبد الكريم ماتت بعد أن أنجبته مباشرة. وصار الرجل لا ينجب من زوجاته إلا البنات. بنات يملأن البيت الكبير ورجل حزين لا يعرف ماذا يفعل. حتى هذه الغجرية التي لا يعرف أحد أصلها من فصلها لم تنجب له غير البنات.

عبد الكريم كان الصبي الوحيد. ذهب إلى الكتّاب وختم القرآن وهو في السابعة. وبعدها وضعه والده في مدرسة الراهبات في قرية «مشتى حمود»، على مسافة ساعة من قريتهم. إلى «مشتى حمود»، كان غاندي يذهب ماشياً كل صباح، وحين يعود إلى البيت، كان يخاف من نظرات هذه المرأة التي لم تتوقف عن إنجاب البنات.

غاندي لم يقصد ذلك، لكنها رأته، يستطيع اليوم أن يحلف على القرآن الكريم، أنه لم يقصد ذلك، لكنه لا يعرف لماذا جمد في مكانه. ذهب إلى الحقل ليبول، ثم بدأ. كانت الشمس تميل إلى المغيب، ومشهد الحقل الأصفر في الصيف يسد الأفق بأكوام القمح التي تنتظر أن تدرس، وغاندي يقف، وأمامه يأتي مشهد الراهبة وهي تنحني أمام طاولتها لتلم الطبشورة التي وقعت على الأرض، غابت عيناه وأخذت يده تحتل مساحة ثوب الراهبة الأسود، وغاب في ثوبها لا يريد أن يعود. وجاءت تلك المرأة، برزت له لا يعرف من أين. وبدأت تنهال عليه ضرباً بغصن زيتون طويل. هي تضربه وهو يمسك بقضيبه ويشعر بنشوة غريبة، كأن جسمه لم يعد له. لا يعرف غاندي الصغير لماذا لم يتوقف، صار يبرم في مكانه حتى لا ترى المرأة الشيء الذي في يده، وكانت هي تدور حوله وتضربه. وحين تلاشى العالم بين يديه، رآها تقف كالمشدوهة، الغصن في يدها، تنظر بعينين كبيرتين وفمها نصف مفتوح. فجأة رمت الغصن وهربت. هو أيضاً هرب إلى البيت، وجلس وحيداً مرتجفاً. أما هي فاختفت.

وفي الليل أمسك به والده من كتفه وأخذه إلى المغارة. لم يقل الوالد شيئاً، وعبد الكريم لم يقل شيئاً. مشى معه بقدمين مرتجفتين، ودخل إلى حيث أمره والده، الذي قال له شيئاً يشبه أنه يجب أن يموت.

كان عبد الكريم مقتنعاً أنه سيموت، لكنه لم يمت. والآن، حين يروي الحكاية لأليس، فإنه يكاد يمزج بين إقامته في المغارة وبين حكاية والد جده. يخبر حكاية زوجة الأب، وبعدها يخبر حكاية الضبع، حتى اقتنع بأنه بطل القصتين.

عبد الكريم لم ينم ليلته في المغارة. أكله الخوف والبرد. كانت الدنيا صيفاً لكنه شعر بالبرد يفترسه. لا يعلم من أين جاءته الشجاعة، لكنه هرب. مشى طوال الليل بين الحقول. كان يعتقد أنه يسير باتجاه سوريا، لكنه وجد نفسه بعد ثلاثة أيام من المشي والحكايات التي لا تنتهي في طرابلس. هنا، في طرابلس، بدأت رحلته. من طرابلس إلى بيروت، ومن الفرن إلى المطعم إلى صندوق البويا، ومن النبعة إلى رأس بيروت.

في طرابلس اشتغل في فرن المعلم رشيد. المعلم رشيد عرفه وأخذه إلى الفرن. وهناك شعر بالدفء. نار ودفء ورائحة الخبز والرغيف المدور كأنه بدر. في الفرن عاد إليه خوف المغارة. كان ليل الفرن مخيفاً، غاندي كان يخاف من النوم في العلية وإلى جانبه المعلم جعفر بكرشه ولحيته والعرق الذي لا يتوقف عن التساقط من جسمه. المعلم جعفر أمام بيت النار، والنار تشع في عينيه حتى وهو نائم. يأكل ولا يشبع وينام في الفرن لأنه ليس متزوجاً. كان غاندي يخاف من جعفر، يخاف من شخيره ومن أسئلته الجنسية. غاندي يخاف، يستمع إلى نصائح الست رشيدة زوجة المعلم رشيد وهي تعطيه قليلاً من الطبيخ كي يقيت جسده النحيل.

أحب غاندي طرابلس وأحب السمك. لكن بعد ثلاث سنوات

طويلة قضاها بين العلية وبين بيت المرأة الطرشة، وبين توزيع الخبز على بيوت الزبائن، قرر أن يغادر إلى بيروت. لم تعد حياة الفرن تطاق ولم يعد المعلم رشيد كما كان بعد موت زوجته. وعندما طلب منه المعلم رشيد أن يتمرن على العمل أمام بيت النار، شعر غاندي الصغير أنه لم يعد قادراً. قرر أن يترك عمله ويذهب إلى بيروت. لم يقل وداعاً لأحد، حمل أغراضه ومضى إلى بيروت مفتشاً عن مطعم الست نجاة. الست نجاة، التي كانت تزور أهلها في طرابلس بين وقت وآخر، قالت له أن يأتي ساعة يشاء، عندها له شغل مختلف. وجاء اليها، وفي مطعمها تعلم كيف يكون الانسان وحيداً، وكيف يعيش في البرد. ست سنوات من البرد والخوف، والأشياء تمر حوله كأنه لا يراها. قال غاندي الصغير لأليس إنه لم يكن يرى. كان يقرأ نتفاً من الجرائد من خلال لفّات الخبز، ويذهب إلى السينما، ويرى الزبائن، لكنه لم يكن يرى. الخوف الذي ابتلعه في مغارة «مشتى حسن»، جاء معه إلى طرابلس أمام مغارة الفرن، ثم أخذه إلى بيروت أمام تنهدات الست نجاة وإحساسه بالوجع في الركبتين، الذي سيلازمه طيلة حياته. ولم يكتشف أنه يرى إلا حين رجع من قريته ومعه فوزية واشترى صندوق البويا. يومها فهم غاندي الصغير معنى الحياة. قال لزوجته إن عليه أن يدبّر رأسه. «الحياة هي رأسك». وحمل رأسه بين يديه ومضى إلى أمام الجامعة الاميركية. كان يعرف أن الشغل في النبعة مستحيل. فالفقراء لا يصبغون أحذيتهم، وأن الشغل في البرج مكلف جداً، لأن عليك أن تدفع نصف مدخولك للقبضاي الذي يحميك. أما هناك، أمام مطعم «جرجورة»، فتستطيع أن تجلس وتتفرج على بنات الجامعة الأميركية، وتعيش على مزاجك. صحيح أن المدخول كان خفيفاً في البداية، لكن الأيام تغيرت ومشى الحال.

وغاندي كان يخاف من الموت. تحبل فوزية وتلد ثم يموت الولد. أربعة أولاد ماتـوا، إلى أن جاءت سعاد وعاشت، وبعدها عاش حصن بصعوبة، بفضل الدكتور دايفيز. وخوفاً على صحة فوزية وصف لـه الطبيب الكبوت، وتلك حكاية أخرى. ثم لم تعد فوزية تحبل، فارتاح غاندي من الموت ومن الكبوت وانصرف إلى شغله. كان يريد تـوفير بعض المال كي ينتقل من ضهر الجمل في النبعة إلى الحمراء، والمال لا يصمد. حتى في عزّ المطعم لم يصمد معه قرش واحد.

وأليس تعتقد أن المال لا يصمد.

كانت أليس تقول له إن مال الفقراء مثل الملح يذوب بين الأيدي ويتبخر مع الماء. وتسرد ذكرياتها التي لا تنتهي، من الملازم طنوس إلى الزعيم الأوحد. وغاندي يبتسم:

«أنت يا ست ما بتحبي غير الضباط.».

«أحلى شي الضباط»، تجـاوب أليس. «أنت شو بعـرفك، لمن الضابط وعلى أكتافه نجوم السما، بطبّ على الأرض قدام اجريـك، وبيصرخ من الوجع. أحلى شي وقت تتوجع النجـوم قدامك، ساعتها بتشوف الدنيا غير شكل. بس كله راح، حتى مصاري ما بقي معي. صرت هيك مثل ما انت شايف».

وأليس تحب أن تحكي دائماً قصة الملازم طنوس، لأنـه عندمـا ذهب وكانت زوجته تقف على الباب، بكى. وعاد إليها مرة واحدة، لكنها طردته، نامت معه وطردته. أما الزعيم الأوحد فحكاية أخرى.

كانت أليس تعمل يومها في بار «الميرابيل» على الروشة، عندما جاءها الامبـرزاريو أبو جميل. كان أبو جميل يعرف أن أليس تتعذب بعد

أن تركها الملازم طنوس. جاء أبو جميل مع الفجر، وذهب معها إلى البيت. وضع قنينة كونياك أمامه وبدأ يشرب ويحكي. حكى لها عن الصفقة الكبرى، «الصفقة الكبرى يا أليس هي الموصل، أنتِ رحتِ على حلب بس الموصل مختلفة، انكليز وجيش ومصاري، وشو ما بدك بصير، في مجموعة راح تروح بعد أسبوعين، الاقامة شهر، المعاش ألفين ليرة بالأسبوع ما عدا البراني، وكل شي على حسابنا، أنت بس قولي ويللي بدك».

الغرفة كانت مظلمة.

قالوا لها، هكذا قال لها الرجل، تدخلين إلى الغرفة ولا تضيئين، تستلقين على الفراش عارية، وبعدها سيأتي. لم يقل من هو، قال سيأتي، وأنت عليك أن لا تفتحي فمك.

انتظرها الرجل في الخارج. كانت أليس متعبة، فاليوم الثالث في ملهى «الموصل الكبير» كان مرهقاً. انكليز وقناني شمبانيا تفرقع في الهواء، واليونانية القادمة من بيروت تستولي على قلوب الجميع، وأليس شبه معزولة، تحس بارتجاف في ركبتيها كلما وقفت. وعندما تدنو من طاولات الزبائن وتجلس ينكمش جسمها. فالأيدي التي تمتد إلى قدميها وفخذيها مختلفة هنا. كأن الأصابع تلتصق بلحمها وتمزّقها. شعرت أليس أنها فشلت في الموصل. اليونانية «انيتا» هي التي ربحت هذه المرة. فأليس التي استولت على قلوب رواد «الميرابيل» في بيروت، بضحكتها وصوتها المبحوح وسمارها الشاحب، شعرت هنا أنها وحيدة وغير مرغوبة. كأنهم لا يريدون رقصها ولا غمازتيها ولا عينيها الكبيرتين.

في الثانية، صباحاً، جاء الرجل وأخذها. غادرت الملهى دون أن

يشعر بها أحد، لتجد نفسها في غرفة سوداء. الستائر مسدلة، رائحة بخور هندي. لم تر شيئاً في البداية، ثم بدأ الظلام يكشف عن سرير عريض وكرسي وطاولة. خلعت ثيابها وعلقتها على الكرسي، واستلقت على السرير. انتظرت طويلاً. يبدو أنها أغفت. إستيقظت على يد تلاعب عنقها. شمّت رائحة رجل ولم تر شيئاً. وحين حاولت أن تتكلم وضع يده على فمها ولم يقل شيئاً. سكتت وتركته يفعل ما يشاء. كان بكامل ثيابه، حتى الحذاء لم يخلعه. قبّلها في خدها الأيسر، انحدرت شفتاه وانحدر هو، وتساقط بين قدميها. مكث طويلاً، وأليس كانت خائفة. ارتجافة عضلات فخذيها امتدت إلى كل أنحائها. وكان هناك، رائحته فيها شيء من الغبار وشيء من الملح. وحين صعد مرة أخرى وأخذ نهديها بيديه، حاولت أن تبرم باتجاهه لتقبله، لكنه أبعدها وبرم ظهره. فعادت أليس إلى وضعها الأول، عارية ووحيدة ومستلقية على ظهرها. بقيت أليس ساكنة، تركته وأغمضت عينيها، وحاولت أن تنام، بعد فترة قصيرة عاد إليها، صعد ووضع يديه على نهديها، قبّلها، وبدا كأنه يريد أن ينام، وضع رأسه على بطنها ولم يتحرك. وبدأ يقرصها في كل جسمها، وهي تتأوه دون أن تصرخ. كان الألم يتدحرج بين كتفيها. شيء من ماري نقوز يعود، شيء من تلك المتعة التي لم تعرفها أليس إلا مرة واحدة في حياتها، ورفضت بعدها أن تعيد التجربة. التجربة تأتي إليها. الرجل بكامل ثيابه يطوف حولها وسط الظلام، ثم يهدأ، وهي ترتعش وحيدة. حاولت أن تمسك يده وتضعها على صدرها، لكن اليد انسحبت. اقترب منها وغمرها بجسده كله، قبل أن يدير لها ظهره وينام.

أليس لم تنم تلك الليلة. كانت تنتظر الفجر، لكن الفجر لم

يطلع. تريد أن تنام مع رجل، لكن هذا الرجل ذهب في إغفاءة عميقة. أغفت أليس دون أن تدري أنها نامت. وحين استفاقت وجدت العتمة نفسها. نهضت،حاولت أن تفتح الباب، لكنه كان مقفلاً بالمفتاح، حاولت أن تفتح الستائر، لكن الستائر لا تفتح. عادت إلى السرير ونامت من جديد. بعد وقت لا تذكره، انفتح الباب وجاء رجل البارحة ومعه مصباح على البطارية، طلب منها أن تلبس وتتبعه. لبست وتبعته، مشى بها في ممرات طويلة لا تنتهي. أمس لم تلاحظ أليس هذه الممرات، ربما لأنها شربت الكثير من الشمبانيا، واليوم لم تنتبه متى غادرها الرجل الأسود، ربما لأنها نامت. أمام الباب أعطاها الرجل مظروفاً مليئاً بالمال، وقال لها إن السائق سيوصلها إلى الفندق، وأن الموعد غداً. وحين وصلت أليس إلى الفندق لم يجرؤ الامبرزاريو أبو جميل أن يسألها شيئاً أو يطالبها بشيء من حصته. الاتفاق كان أن تدفع له خمسين بالمئة من البراني. ذهبت إلى غرفتها ونامت حتى المساء. وفي اليوم الثاني تكررت الحكاية. ثلاثة أسابيع والحكاية تتكرر كل يوم.

في اليوم الأخير، حين كان الرجل الذي بلا ملامح شبه نائم، جلست أليس على السرير وقالت إنها ستغادر غداً. اعتقدت أنها سمعت كلمة «زين» تخرج من فمه. أليس غير متأكدة، هل هو الذي تكلم أم أن كلباً عوى في الخارج. لم يقل غير كلمة واحدة، وفي تلك الليلة قرصها كثيراً حتى امتلأ جسدها بكدمات اضطرتها حين عادت إلى بيروت للتوقف عن العمل لمدة أسبوع.

ذهبت ذكريات الرجل الأسود معه. نسيته أليس وعادت إلى عملها في «الميرابيل»، ترى الملازم طنوس في آخر الكاباريه لا يجرؤ على الاقتراب منها، تبتسم له ويذهب، وتنصرف هي إلى سماع حكايات

الزبائن، وإلى التعجب من هذه المآسي التي تختبىء خلف كروشهم.

وبعد سنتين، جاء أبو جميل ليقدم لها الاقتراح نفسه: الموصل. ترددت أليس طويلاً، وأبو جميل يفرك بيديه ويقول إن باب الرزق انفتح والرجل لم يتوقف عن طلبك. أليس ترددت فهي تذكر من الموصل ذلك الظلام المخيف، تذكر أنها كانت تخاف، وأن الرجل كان يتسلقها كأنها شجرة وليس كأنها امرأة. لكنها ذهبت. ومرة ثانية لفّها ظلام طويل لمدة شهر لا تعلم كيف استطاعت أن تهرب منه.

هكذا الأشياء.

«الأحصنة كانت خضراء»، قال غاندي.

وغاندي الصغير كان عاجزاً عن نسيان الأحصنة الخضراء. الأحصنة تدوس ظهور الرجال، والرجال يتأوهون. كان اسمه «خميس المشايخ». وكان الطفل الذي يرى بعين واحدة، يدور بين أقدام الرجال، وهو يحاول أن يرى. كانت الأحصنة تظهر بين أقدام الرجال، بلونها الأخضر. لم ير غاندي الصغير أحصنة خضراء إلا في «خميس المشايخ». وحين سأل القسيس أمين عن الأحصنة الخضراء، ضحك القسيس وربت على ظهره، «أنت بسيط»، وقال شيئاً من الانجيل عن الذين يرثون الأرض «طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض».

«شو يعني طوبى يا قسيس»، سأل غاندي.

«طوبى يعني نيّاهم. نيّالك يا غاندي لأنك شفت الحصان الأخضر. هيدا حصان ما حدا شافه إلا القديس يوحنا».

«سلّملي على يوحنا»، يا مولانا.

الأحصنة الخضراء تتماوج بين الأقدام والرجال ينبطحون،

والشيخ يتمتم ويزفر. يجلس وحيداً على دكة عالية، وحوله يدور المشهد. ينهض رجل من تحت حوافر الخيل ويركض باتجاه الشيخ يقبل يده ويبكي. هكذا كان يفعل حصن والد عبد الكريم غاندي. ينبطح أرضاً فتدوس الخيول الخضراء ظهره، ثم ينهض باكياً باتجاه الشيخ. كانت دموعه تبقى معلقة في عينيه ثلاثة أيام. الدموع تعلق بالعينين كأنها حبات بلور صغيرة، تتأرجح بين الجفون ولا تسقط. وعندما مات الرجل وجاء غاندي الصغير إلى القرية ودخل الغرفة حيث سجي الرجل داخل كفنه الأبيض، لم ير الدموع في العينين. كانت العينان مطبقتين وسوداوين كأنهما حجران صغيران. يومها بكى غاندي. لا يعرف من أين جاء هذا الحب للرجل الذي قتله في المغارة. فجأة شعر أن هذا الرجل هو والده وأنه غريب في «مشتى حسن».

بعد الدفن أخذه ابن عمه إلى زاوية في البيت وحدثه عن فوزية. قال ابن العم الذي يعيش في طرابلس، إنه انتظره طويلاً، وأن البنت يجب أن تتزوج، وأنه أولى بها.

وافق غاندي بحركة من رأسه، أخذ عمه يده اليمنى وقال: «نقرأ الفاتحة». وقرأوا الفاتحة. وبعد شهر عندما رجع غاندي إلى القرية من أجل أن يتزوج، قالت له زوجة أبيه السوداء الشعر، قالت له تلك الغجرية التي أوصلته إلى المغارة، إنه يستطيع أن يبقى في البيت. لكنه لم يكن يريد. كان مهتماً بإتمام الزواج بسرعة والعودة إلى بيروت، وتم الزواج بأقل التكاليف ليمون وسكر وزغرودة واحدة من زوجة أبيه. أخذ فوزية ورجع إلى بيروت، ومن يومها لم يعد إلى القرية أبداً. بلى عاد إلى «مشتى حسن» من أجل سعاد. قالوا له إن الشيخ يستطيع أن يشفيها. ذهب غاندي إلى الشيخ ومعه الفتاة بعينيها المذهولتين وجسدها النحيل

وكلامها المتقطع. أجلسها الشيخ أمامه في غرفة مظلمة، وبدأت روائح البخور وأصوات الكلمات الغامضة. طلب الشيخ خمسين ليرة وأعطى غاندي حجاباً. لكن البنت لم تشفَ، بل زادت حالتها سوءاً، ولولا رحمة الله لقتلوها.

«المجنونة هربت وحدها إلى النبعة»، قال غاندي إنها رحمة الله، لولا رحمة الله لراحت البنت وماتت بعارها. «الدواء انقطع»، قال غاندي لأليس، «البنت صارت ما بعرف كيف، تمشي وتطرطق بالحيطان، وبعدين اختفت. قلت راحت عليك يا غاندي، البنت راح تبطل مجنونة، بس راح تموت، إذا هني ما قتلوها أنت راح تقتلها.».

غاندي لم يقتل البنت. عادت سعاد بعد ثلاثة أيام بالنظرات نفسها. كأن لا شيء. لو اغتصبوها لشفيت، فكّر غاندي. عادت إلى البيت وكأنها لم تذهب، فقط ازدادت تأتأتها قليلاً، وحكت كلاماً غير مفهوم.

«بتحكي طالع نازل، تعال واسمع»، قال غاندي لرالف.

رالف كان غير مهتم، دخل إلى البيت متعباً، وجلس مع أخته واستمع إليها وصار يضحك. والفتاة أخبرت قصتها للجميع، لكن لم يفهم عليها أحد. هل صحيح أنهم أخذوها إلى كاراج وهناك حاولوا اغتصابها، لكن أحدهم بدأ يتقيأ ويرتجف، فتركوها وهربوا. أم أن الحقيقة هي «تينو»، وهذا هو لقب زعيمهم كما يبدو، «تينو» قال لهم أن يتركوها لأنها مجنونة ولأنها ستحمل إليهم أمراضاً لا يعلم الله أنواعها. أم الصحيح أن المشعلاني، «اسمه ما بعرف شو اسمه، هو يللي خلصني، شعلة، بلى شعلة»، أم أن شعلة أو المشعلاني هو الذي بدأ

ينطح رأسه بالحائط ويصرخ «اتركوها، أنا ما بسمح، أنا»، وأخذها وأخرجها من الكاراج وأوصلها إلى المتحف.

لم يعرف أحد ماذا جرى مع البنت عندما هربت إلى بيتهم القديم في النبعة، في المنطقة الشرقية من بيروت، وعادت كما ذهبت.

«حتى المسلحين أولاد الكلب لم يمسّوها. أنا قلت لابن العم، يا ابني خدها، خدها يوم واحد وبعدين إذا ما بدك ردها. هيدي البنت ما بتصح إلا إذا سيّلها دمها رجال. بس الكلب رفض. قلت له ردها، بلا مقدم ولا مؤخر، أنا بدفع. بس خاف. هو كمان خاف. هي البنت شوبها، يا عمي بنت متل القمر. بس هو كلب، كلب وريحته طالعة ورفض، قال ما بده يتزوج، حدن بيرفض يتزوج. قال مرته ما بتقبل، حدن بيرفض يتزوج على مرته».

وعادت البنت، وعاد غاندي الصغير من كل جولاته من أجل شفائها خائب الأمل. زوجته قالت: «هذا نصيبنا يا رجل، لازم نقتنع، القناعة كنز». واقتنع غاندي بكنزه وتوقف عن البحث.

غاندي أخبر القسيس أمين بالحكاية، لكن القسيس لم يفهم شيئاً، نظر إلى غاندي بعينين غائمتين وشخر كأنه نائم. غاندي صار يعطف على القسيس. يمر به في منزله في الطابق الثاني من البناية المطروشة بلون بنفسجي كأنها حبة معلّل. غاندي صار اليوم يذهب إلى القسيس ويعطيه خبزاً وبعض الليرات. والقسيس يبدو كالغائب عن الوعي. ولولا تدخل أليس لانتهى مكرسحاً على رصيف كنيسة «السيدة» في شارع المكحول.

يذكر غاندي القسيس في شبابه. كان ذلك بعد مجيئه إلى بيروت،

وفي عزّ أزمة موت الكلب. فبعد موت كلب المستر دايفيز، عاد غاندي إلى مهنته الأصلية، جلب صندوق البويا وجلس أمام الجامعة الأميركية. غاندي استشار القسيس أمين في مشروعه الجديد. اشترى كلباً بدلاً من «فوكس»، وسماه «فوكس»، وحاول أن يقنع المستر دايفيز، لكن المستر دايفيز كان عاجزاً عن الفهم. يمشي وحيداً في شارع «بلس» أمام الجامعة الاميركية وهو عاجز عن الكلام.

قال جون دايفيز إن مهمته فشلت في لبنان.

قال إنه أتى وصار عربياً مثل العرب، أحب الناس وبيروت والسمك المقلي والقرنبيط والطرطور، أحبهم وصار واحداً منهم، لكن من المستحيل. الشرق همجي، لولا الهند وغاندي الأصلي لبقي الشرق همجياً.

جون دايفيز لا يفهم كيف ضحك الرجل عليه وهو ينحني مرتجفاً أمام كلبه الميت.

«كلب يا خواجة، بسيطة»، وبصق الرجل.

لم يكتف بقتل الكلب بل بصق عليه لأنه نجس.

يومها انقطعت علاقة دايفيز بالقسيس أمين. القسيس أمين حاول أن يخفف وقع الصدمة عن دايفيز، وأن يساعد غاندي على تربية الكلب من أجل صديقه الاميركي، ومن أجل صداقتهما. لكن الاستاذ الأميركي لم يحتمل الصدمة، ولم يفهم دفاع القسيس أمين عن العرب، ورفضه لكلامه. كانت صداقتهما مشهورة، القسيس أمين يتكلم معه الانكليزية بلهجة نيويورك التي لا يعرفها، ودايفيز يجاوب بعربية أبناء بيروت التي لا يتقنها. دايفيز يدرس فلسفة الأخلاق في الجامعة

الاميركية، والقسيس أمين مسؤول عن رعية رأس بيروت التابعة للكنيسة المشيخيَّة. كلاهما على المذهب البروتستانتي. القسيس أمين يعتقد أن أميركا هي الحضارة والتقدم والحرية، والمستر دايفيز يكره مدينة نيويورك التي عاش فيها ودرّس في جامعاتها ويحب الشرق والتوابل والعرب. حكاية المستر دايفيز طريفة، خاصة حين يروي كيف درس العربية على يد الحلاق مصطفى الغلاييني، قبل أن يدرسها في شملان، في المدرسة التي أُنشئت خصيصاً لتعليم الأجانب اللغة العربية. مستر دايفيز الذي عاش مع زوجته، وحيداً دون أولاد، غادر بيروت قبل بداية الحرب الأهلية عام ١٩٧٥، بسبع سنوات. ويبدو أن حادثة مقتل الكلب كانت حاسمة في تقرير مصيره. قال المستر دايفيز للقسيس أمين إنه يشعر بوحدة قاتلة، وأن كل عمله في لبنان كان فشلاً بفشل.

«فجأة أشعر أنني غريب، أشعر أن لا أحد، لا أحد في العالم يهتم بي. وزوجتي المريضة دائماً، تريد أن تعود إلى أميركا. هنا بلادي، لكنني سأسافر. كله فشل. أنا لست حزيناً على الكلب، لكن كيف بصق عليه، كيف»؟.

انحنى الاستاذ الأميركي فوق كلبه المحتضر وسط الشارع، والسائق الذي دهسه بسيارته نزل من السيارة وبصق. أحس الاستاذ أن كل شيء قد انتهى، ولم تنفع محاولات القسيس أمين، وإشرافه على تربية «فوكس» آخر اشتراه غاندي الصغير، وهو من نفس فصيلة الكلب الميت.

وحين رفض الاستاذ الكلب، وأراد غاندي التخلص منه،

اقترحت ليليان قتله. القسيس هو الذي ذهب إلى الصيدلية واشترى السم الذي سقاه إياه غاندي مع الحليب.

غاندي الصغير لم يكن يحب القسيس أمين، فهو على الرغم من لطفه ولطف أبناء رعيته، كان متكبراً، يتكلم بصوت منخفض، ويستخدم لهجة هي مزيج من اللهجة البيروتية واللغة الفصحى. يهز رأسه كثيراً ليوحي بأنه يتفهم الآخرين، لكنه كان يفعل ما يحلو له. رائحة الويسكي تفحّ من فمه بشكل دائم، وحكايات مغامراته مع ليليان صباغة يعرفها الجميع، أو صاروا يعرفونها، بعد أن فضحتها مدام صباغة في إحدى نوباتها الجنونية، يوم ماتت خادمتها الروسية «فيتسكي نوفيكوفا». وقفت أمام غرفة الخادمة وهي تضع منديلاً على فمها وبدأت تولول. ثم شتمت القسيس أمين وروت الفضائح.

غاندي صار يهتم بالقسيس أمين لأنه يشفق عليه. زوجته تركته ولحقت بأولاده في أميركا، وهو دخل في الانهيار الكامل. صار القسيس يشخ تحته ويترشق كلمات غير مفهومة. يذهب كل صباح إلى كنيسة السيدة، يقف أمام أيقونة العذراء، يصلّب بمطانيات رهبانية، بأن ينحني حتى يلامس جبينهُ الأرض، ثم يقف كالمعتوه أمام الباب الملوكي. يرفع يديه إلى الأعلى ويتقدم من الهيكل. والخوري يوحنا يأخذه جانباً ويطيّب خاطره، ويذكره بأنه قسيس وأن عليه الاهتمام برعيته. لكن يبدو أن القسيس أمين نسي كل شيء. نسي رعيته ونسي أنه بروتستانتي، ولم يعد يتذكر من الصلوات إلا جملة واحدة: «ذكصا يا تري كي يي يو، كيا ييو بنفمتي، كانين كيايي كييستوسا يونا ستونيون آمين».

الخرف، يقول الخوري يوحنا، وهو يشكر أليس على لطفها.

«يا بنتي، أنت بنت حلال، الله يستر آخرتك».

والقسيس أمين نسي كل شيء. نسي أنه متزوج وعنده أولاد، ولم يعد يعرف إلا الصلاة باليونانية. نسي حكاية جدته أم طانيوس في صيدا وهي تصرخ «يا حبيبي يا محمد»، ونسي كيف صار قسيساً بفضل المعروف الذي أسداه القسيس سليم لوالده في الحرب العالمية حين أنقذه من المجاعة عبر تعيينه أستاذاً في مدرسة الفنون في صيدا، فصار الوالد بروتستانتياً، دون أن يتوقف عن عادة رسم إشارة الصليب.

نسي القسيس كل شيء. حتى مدام صباغة التي أرادها أن تطير، وكان يقول لها إنها عاجزة عن الطيران لأنها امرأة تافهة، وأنه يحبها لأنه اكتشف أنه لا يصلح للنساء. نسي كل شيء، وصار مرمياً ووحيداً أمام كنيسة السيدة، لا يهتم به أحد، وسط قذائف الحرب التي تطير وتحول المدينة إلى صحراء من الوجوه التائهة.

وحين أخذته أليس الى دار العجزة في الأشرفية، كان غير قادر على الكلام. كان يقف أمام الكنيسة، وحوله بعض المسلحين الذين يسخرون منه، وهو كالتائه، رائحته وسخة، ولحيته غير حليقة، ويداه تتعلقان بدرابزين الكنيسة الخارجي كي لا يقع.

أخذته أليس إلى البيت وغسلته، وألبسته ثياباً نظيفة وأطعمته. ركبت تاكسي وقطعت به إلى بيروت الشرقية، حيث أوصلته إلى أمام مأوى العجزة في الأشرفية.

الراهبة افدوكيا، التي كانت تجلس خلف طاولتها، والثياب السوداء تغطيها، ولا يظهر منها سوى وجه مستدير أبيض، مليء بشعيرات مشقرة بفعل الأوكسجين، وتالولة تحت أنفها، ينبت منها ثلاث شعرات سوداء، رفضت استقبال الرجل. قالت إنها تريد مالاً.

«ولو يا ماسور، دخيلك الرّجال وحيد وما عنده حداً، بعدين هيدا مسيحي، وأنتم مجبورين فيه».

«مش ممكن»، جاوبت الراهبة.

بكى القسيس أمين، كان كأنه استعاد شيئاً من ذاكرته، أو كأنه رأى نفسه أمام المرآة. بكى، وصلّب وصرخ: «ذكصا باتري كي يي يو». لكن لا البكاء ولا الصلوات نفعت مع الأخت افدوكيا. فدفعت أليس ألف ليرة وقالت لها إنها ستدفع أول كل شهر.

إنحنت أليس على يد القسيس وقبلتها، وعادت إلى رأس بيروت.

عادت أليس وأخبرت غاندي. أخبرته كل حكاياتها، عدا لحظة جنون الضابط. «الضابط جنّ، ما كان ضابط وبس، كان زعيم، ويمكن كان رئيس جمهورية».

أليس لا تعرف كيف سمحوا لها بمغادرة تلك البلاد. لكن غاندي لم يصدقها، وأنا أيضاً لم أصدقها.

- ٤ -

قالت أليس إنه مات.

«جئت ورأيته، غطيته بالجرائد ولم يكن أحد، زوجته اختفت، كلهم اختفوا، وبقيت وحدي».

قالت أليس إنها أخذته إلى المقبرة، ورأت النـاس بلا وجـوه. «صار الناس بلا وجوه». قالت لي. تكلمت معهم ولم تسمع أجوبتهم، ثم تركتهم وراحت. وهكذا انتهت الحكاية.

«أخبريني عنه»، قلت لها.

«كيف أخبرك» جاوبتني. «أنا كنت أعيش كأنني أعيش معه ولا أعرف. عندما تعيش لا تنتبه. أنا لم أنتبه لشيء، فقط لا أعرف». هزت رأسها ورددت جملتها«بعرف أنه راح وراح ببلاش».

أذكر كلمات أليس وأحاول أن أتخيل ما حدث، فاكتشف ثقوباً في الحكاية. كل الحكايات ملآنة بالثقـوب. لم نعد نعـرف أن نروي الحكايات، لم نعد نعرف شيئاً. وحكاية غاندي الصغير انتهت. الرحلة انتهت والحياة انتهت.

هكذا انتهت حكاية عبد الكـريم حصن الأحمدي المغـايري، الملقب بغاندي الصغير.

عندما كانت أليس تقف وسط الملح والماء الذي بلّل الصحف التي غطت بها جسد غاندي الصغير، كانت ريما تقف في طرف الشارع المقابل. أليس لم تر ريما ولم تتعرف إليها. ريما التقت بها مرة في بيت غاندي الصغير، لكنها لم تتذكرها، ولم تذكر ذلك اللقاء، عندما دخل رالف إلى البيت ومعه تلك الفتاة الشقراء الشعر، التي تتكلم كأنها تضع مسافات بين كلماتها. لم تلتفت إليها أليس يومها، رغم أن الفتاة جاءت إلى البيت لمقابلتها. فرالف كان قد حدثها طويلاً عن أليس، وهي أرادت أن تتعرف إليها، وتكتشف هذا العالم الغريب الذي يختفي خلف قشرة بيروت.

ريما كانت تقول لرالف إنها لاتعرف شيئاً. من أين تعرف. حتى حبها لهذا الفتى، الذي يعمل حلاقاً في صالون جوزيف تبشراني الكائن خلف شارع المقدسي في الحمراء، ليس مؤكداً. هو أخبرها عن علاقته بمدام نهى. وهي كانت تشم في جسده حين ينام معها، ذلك العطش إلى المرأة الأخرى. كان كأنه يتمسك بها كي لا يقع. «ليس الحب هكذا»، قالت له مرة، لكنها كانت تحبه أو تريد أن تحبه. فهي بعد تجربتها مع حسّان، وذلك الشعور بأن هاوية مرعبة انفتحت في داخلها، قررت أن لا تعود إلى تلك الهاوية. مع رالف لا وجود للهاوية، هناك شيء من السكون الذي يلف جسدها. حين يقترب منها، تشعر أن هناك مسافة تفصله عنها، هذه المسافة كانت تتعبها في بعض الأحيان، لكنها كانت تعطيها أماناً غريباً. أما حسّان فكان شيئاً مختلفاً. التقت به منذ خمس سنوات في طوارىء مستشفى الجامعة الأميركية، حين جاءت مع مجموعة من الناس الذين يقطنون برج أبي حيدر، لتوصل جريحاً سقط بقذيفة عشوائية. وهناك بدأت تلك العلاقة

الغريبة التي لم يكن من الممكن إيقافها. كان حسّان مختلفاً عنها. فهو من قرية «عين عنوب»، في منطقة عاليه، يذهب في نهاية كل أسبوع إلى قريته، حيث يقول إنه يشعر هناك بالانتماء. يسكن في فردان، ينام ثلاث مرات في الاسبوع في المستشفى، وسيتخرج بعد سنتين، ليذهب إلى الولايات المتحدة، حيث سيتابع اختصاصه في الطب النسائي. أما ريما فتشعر أنها من لا مكان. والدها يعيش في إيطاليا حيث يعمل في شركة كبيرة لصناعة الأدوية، وأمها الألمانية العجوز لا تتوقف عن شرب الويسكي وإطلاق الشتائم. الأم التي طلقها الوالد بعد زواج دام عشر سنوات، ريما هي ثمرته الوحيدة، كانت تنحدر بسرعة إلى حافة الموت. لم تحتمل الزواج ولم تحتمل الطلاق، أحبت رجلاً يصغرها بتسع سنوات، وحين تزوجها كرهته، وحولت حياته إلى جهنم. والآن هي تعيش في جهنم. بعد أن طلقها وهرب إلى إيطاليا، تحولت المرأة التي على مشارف الستين إلى نصف مجنونة. «أمي نصف مجنونة»، قالت ريما لحسان وهي تروي له أنها لم تعد تفهم مشاعرها تجاه أمها وأبيها المهاجر وهذه المدينة التي ولدت فيها.

في البيت تتكلم ريما الالمانية مع والدتها، وفي عملها في «بنك المتوسط»، تتكلم الفرنسية، ومع صديقها الطبيب تتكلم العربية. وهي لم تعد تعرف كيف تحكي، كأنها نسيت اللغات الثلاث التي تعرفها، وصارت تعطي هذا الانطباع الغريب بأنها تضع مسافات بين الكلمات. تسكت وسط الحكي كأنها تفتش عن الكلمة، أو كأنها تنسى ما كانت تريد أن تقوله. ريما الهاربة من علاقتها الغامضة بحسّان، وجدت نفسها داخل علاقة أكثر غموضاً مع رالف أو حصن أو غسان. كان الفتى الذي يحمل ثلاثة أسماء يبدو كأنه أكثر من شخص واحد.

كان يزحط بين يديها ويبدو غريباً كأنها لا تعرفه. هي فعلاً لا تعرفه. تذكر أنها التقت به صدفة. فهي الشخص الوحيد في هذه الرواية الذي لم يكن يعيش أو يشتغل في منطقة الحمراء، وتحديداً في شارع المقدسي والشوارع المتفرعة عنه الموصلة إلى شارع بلس. ربما كانت تعيش مع أمها في برج أبي حيدر وتشعر بالغربة الكاملة عن بيروت. عادت من فرنسا عام ١٩٧٦، لأنها لم تعد تطيق أن تعيش وحيدة. ووجدت عملاً في «بنك المتوسط»، كي لا تبقى دون عمل، وأحبت حسّان لأنه كان أول من برز في هذه المدينة الغريبة وأوحى لها بأنه رجل. لم تكن تعرف ماذا أحبت فيه، فهو لا يتميز بشيء. أنفه كبير وحاجباه كثيفان، ذراعاه تبدوان أقصر من الحجم العادي للذراعين. لم يكن طويلاً ولا قصيراً، لا سميناً ولا رفيعاً، ومع ذلك وقعت في علاقة شبه سحرية معه. في اليوم الأول للقاء، وبعد أن انتهى من معالجة الجريح، الذي لم تكن ربما تعرف اسمه، لكنها جاءت معه ومع أناس آخرين إلى المستشفى، لأنها كانت تقف بالصدفة على الشرفة حين هوت القذيفة، فركضت إلى الشارع، ورأت نفسها في المستشفى، نظر الطبيب إليها، وكان العرق يرشح من جبينه، وطلب منها أن تدعوه إلى فنجان قهوة. ذهبا إلى مقهى «الاكسبرس»، ومن هناك إلى بيته. دخنت الحشيش وسكرت وضحكت. وصارت تأتي كل ليلة تقريباً، لتدخن مع المجموعة نفسها. وعرفت أن حسان يقيم علاقات مع كل هؤلاء الفتيات التي رأتهن في بيته. في البداية لم تحزن، ثم بدأت تشعر بالهاوية تتشكل في قفصها الصدري. صارت عندما تلتقي بحسان تشعر بأن قدرتها على التنفس شبه معدومة. وأن هذا العالم الغريب الذي يأخذها إليه هذا الطبيب يجردها من الشعور بذاتها. تجلس على الأرائك المصفوفة في أرض الصالون، وتدخن وتشرب وتستمع إلى الموسيقى، وهو كأنه غائب عن

الوعي. لكنها صارت عاجزة عن احتمال الحياة بدونه. فكرت أن تطلب اليه الزواج منها، لكنها سمعت جوابه قبل أن تطرح عليه السؤال. سمعت قهقهته وكلماته اللامبالية. ربما لا تعرف الكثير عنه. قال إنه شارك في القتال عند بداية الحرب، ثم أصابه القرف، وأن هذه البلاد مقرفة وذاهبة إلى الزوال، وأنه سيهاجر إلى أميركا ولن يعود.

كانت ربما تخاف. عندما جاء رالف وأخبرها لم تصدقه. ثم بدأت تتقيأ. كانت عيناه جاحظتين، وفي صوته برودة قاطعة كالشفرة. قال لها إنه قتل المرأة، وإنه يريد أن يتزوجها.

«هلّق صار فيّ أتزوجك».

لحق بها إلى الحمام حيث كانت تقف أمام المغسلة وتتقيّأ. احتضنها من الوراء كأنه كان يريد أن ينام معها. كان كل شيء في أحشائها يفور. وهو يمسك بها من خصرها ويحاول أن يشدها اليه، ثم تداعى وجلس على كرسي المرحاض بلا حراك. خرجت من الحمام ودخلت إلى غرفتها، سمعت صوت أمها وهي تتكلم بالألمانية وتسألها ماذا يجري. ثم لحق بها رالف إلى غرفتها وانبطح على الأرض ونام.

ربما لم تصدق أنه قتل مدام نهى. هو لم يقل لأحد إنه قتلها. قال لأبيه إنه دخل إلى بيتها فوجدها ميتة. قال إنه ترك مفتاح بيتها في الداخل، خرج وصفق الباب وراءه، لكنه لا يعرف شيئاً.

قال غاندي «نطلب الاسعاف».

«لا، لا، كانت مقتولة»، قال حصن.

لم يقل غاندي شيئاً. عرف أن ابنه هو الذي قتل، لكنه لم يسأل. ثم خرج حصن من البيت. ناداه، هذه المرة اسماه «حصن»، وجاوب

الولد. عاد وجلس وأشعل سيجارة. ولكن غاندي لم يسأله أي شيء.
وعندما خلعوا باب البيت، بعد أن شمّ الجيران رائحة الجثة التي تسربت، رأوا مدام نهى عون ممزقة الثياب ومنتفخة، وحولها قططها الثلاث ميتة. كل شيء في البيت كان مقفلاً، الأبواب والنوافذ والستائر، والمرأة على الأرض والقطط الثلاث ميتة. أخذوها إلى المستشفى حيث تم تشريح الجثة قبل الدفن. ولم يحضر أحد الجنازة. القسيس أمين كان هناك وحيداً وهو يتأتىء بالصلاة ويشعر بالخوف من هذه النهاية. الجميع قالوا إن حصن هو القاتل، لكن الرفيق «أبو كريم» طمأنه. قال له بسيطة «هيدي امرأة مقطوعة، وما حدن رح يطالب فيها». لكن ريما صارت تخاف من رالف. قال لها أن لا تناديه برالف بعد الآن. قال إن اسمه صار غسان وعليها أن تناديه غسان، فصارت تناديه غسان. وعندما تنام معه تشعر بذلك الحامض الذي يفترس أحشاءها، كما شعرت عندما نامت مع «أبوعبد الكردي»، ناطور البناية التي كان يسكن فيها حسان. هي لم تقرر أن تنام معه، ولم يخطر هذا على بالها. كانت خارجة من منزل حسّان وتهبط الدرج المعتم من الطابق الثالث حيث يسكن. الكهرباء كانت مقطوعة وريما لم تشعل عود ثقاب، كانت تشعر وهي تهبط الدرج وسط ذلك الظلام، كأنها تسبح في مستنقع والحشرات تحيط بها. رأته، رأت الظل المتأرجح. كان يصعد الدرج وهو يحمل شمعة طويلة بيضاء، وظله يتأرجح على حافة الدرج، كأنه يسقط من الحافة إلى الأرض. مد يده كأنه يقطع عليها الطريق، فاصطدمت ريما بالذراع وكادت تسقط. أمسكها بيده الممدودة من خصرها وشدّها اليه، لم تقل ريما شيئاً. هي تذكر أنها قالت لا، قالت غداً، لكنه لم يقل شيئاً، نطحها برأسه وأوقعها أرضاً، فسقطت ريما على

حافة الدرج، وهناك أخذها. لم يخلع بنطلونه، دخل فيها بكامل ثيابه، بعد أن رفع فستانها القصير. جرى كل شيء بسرعة، أحست ريما بالحامض يعلو إلى عنقها. أما هو فقام عنها، بكّل بنطلونه ومشى، وتركها على الدرج كأنه لم يفعل شيئاً وأكمل صعوده. وبعدها صارت ريما وهي تنزل الدرج كأنها تنتظره، وكانت تنتظره فعلاً. معه شعرت بالحرية، شعرت أنها تستطيع أن تتحرر من هذا الحسّان الذي كانت تأتي إليه كل يوم. ثم حين تعرفت إلى رالف أو غسان أو حصن، لم تعد تأتي. قررت أن توقف حكايتها مع «أبوعبد»، ومع ذلك الدرج الصامت، حيث كانت ترى نفسها وحيدة في ليل بيروت، وشيء من الوجع واللذة ينفجر في أحشائها، وهي تترنح بين إحساسها بالتقزز من جسمها وإحساسها بتلك النار التي تنبت في عينيها. لكن حصن كان مختلفاً وغريباً.

أليس قالت لغاندي إنها لا تفهم الرجال.

كان غاندي يمشي وحيداً والكآبة تحيط به، حين التقى بأليس وهي تهمّ بدخول الملهى.

قالت له إنها لا تفهم الرجال.

وكان هو يحاول أن يروي لها خيبة أمله من ابنه، لماذا لا يتزوج ريما وينهي علاقته بنهى عون.

وأليس تحاول أن تشرح له عن الرجال. وغاندي يعرف. فهو حين اشتغل في مطعم سليم أبو عيون في بيروت، فهم أن الحياة كلها أسرار. كان صاحب المطعم قد مات، وترك الشغل لزوجته. وكانت نجاة أو أم حسن هي التي تدير كل شيء. المطعم كان صغيراً، ويقع في آخر طلعة أبوطالب. هناك اكتشف غاندي السرّ. هكذا قال لزوجته في

صباح اليوم التالي لزواجهما. قال لها إن المرأة شيء مختلف. لكن زوجته لم تكن تتأوه كما كانت تفعل أم حسن. غاندي كان يعمل كل شيء في المطعم. يقلي البطاطا والباذنجان، يجلي الصحون، يقشر البصل والثوم، ثم ينام. وافق على العمل عندها لأنها وعدته بتأمين منامته في علية صغيرة داخل المطعم. لكنه اكتشف أن المرأة لا تريده أن ينام في المطعم إلا من أجل الحراسة. كانت في كل مساء، وبعد أن ينتهي الشغل، تعدّ طعاماً خاصاً، تحمل قنينة العرق وتصعد إلى العلّيّة وتقول لغاندي أن يبقى تحت.

«إذا إجا حداً، قل له ما في حداً، سكّرنا مفهوم».

«مفهوم يا ستي»، يجاوب غاندي ورأسه في الأرض، لأنه كان يخجل من النظر إلى عيني هذه المرأة.

ثم يأتي الخواجه اسبيرو، كان غاندي يسميه أبو طاقية، لأنه لم يكن يخلع البيريه الزرقاء عن رأسه، حتى لا تظهر صلعته. يأتي الخواجه اسبيرو، يصعد إلى فوق، وغاندي تحت يستمع إلى الحشرجات والأصوات، ولا يتحرك من مكانه.

أم حسن كانت تطلب منه أن يشطف المحل بعد مجيء اسبيرو. كان غاندي يشمّر عن ساقيه، يرفع الكراسي ويضعها على الطاولات ويشطف. ثم حين تبدأ الأصوات كان يشعر أن ظهره ينقصف إلى نصفين. يتكىء على الحائط، ويستمع. يتخيّل المشهد كما يحلو له. يتخيّل ثديي أم حسن الكبيرين وهما بين يدي الخواجه اسبيرو. يتخيل صلعة اسبيرو وهي تتلألأ بالعرق تحت الثديين. ويتذكر زوجة أبيه النورية. يتذكر طعم القضيب وهو يلسعه على وجهه وظهره وفخذيه.

يتكىء على الحائط، ويمسك العالم بين يديه، ويشهق بصوت مرتفع. لكن أم حسن لم تكن تسمعه، واسبيرو كان غائباً فوق في العلية ولا يسمع شيئاً.

يتابع غاندي الصغير شطف المطعم وهو يرى اسبيرو يغادر. ثم تنزل أم حسن ولا تنظر إلى غاندي. تلتفت جانبياً كأنها تلقي تحية الوداع، ثم تبتلعها عتمة الشارع، وتترك غاندي وحيداً، يجلي الصحون الفارغة المرمية قرب فراشه ثم ينام فوق رائحة عرق اسبيرو وعطر أم حسن وتأوهاته المدفونة في صمت النعاس.

كان غاندي الصغير يخاف من اسبيرو هذا. فالخواجه اسبيرو كان يملك دكاناً لتأجير الدراجات وغاندي لم يكن يحب قيادة الدراجات، وقد سمع أن اسبيرو كان يقيم علاقات مشبوهة مع الأولاد الذين يستأجرون الدراجات من دكانه. واليوم، أي عندما أصبح غاندي الصغير مسؤولاً عن نظافة الحي، صار يرى المعلم اسبيرو وهو بالكاد يستطيع المشي، يمشي وإلى جانبه حفيده الذي اسمه نبيل.

قال القسيس أمين إن اسبيرو كاد ينهار، عندما رفض ابنه، الذي تخرج من الجامعة الاميركية، ويشتغل في إحدى شركات الاعلانات، أن يطلق على ابنه اسم اسبيرو.

«شوبدك الناس تضحك على الصبي»، قال الابن.

«تضحك، ليش تضحك، شو إسم اسبيرو عاطل».

«لا يا بيّي مش عاطل، بس مش خرج ولد».

«شو أنا خلقت ختيار، يعني ما كنت ولد، أنا كنت ولد، وكان إسمي اسبيرو، وكنت أفتخر باسمي».

«أنا هيك بدي»، يقول الابن.

«أكيد أنت مش ابني. أكيد أمك جايبتك من برا. شو إسم اسبيرو عيب هيدا على إسم القديس اسبيريدونيوس العجائبي، بس أنتم جيل خرا».

اقتنع اسبيرو بهذا الحفيد، وصار يعلمه الصلاة، ويقرأ له في كتاب «السنكسار»، يعطيه ليرة ولوح شوكولاته، كي يقرأ له حكايات القديس اسبريدونيوس العجائبي، حين أعلنت قداسته بواسطة الحمير. ذبحوا الحمارين في الليل وهربوا.نهض القديس وأعاد الرأسين إلى موضوعهما وهما يقطران دماً، وفي الصباح اقتنع الناس عندما رأوا رأس الحمار الأبيض على جسم الحمار الأسود، ورأس الأسود على جسم الأبيض. الولد يغفو قرب جده، والجد يحاول أن يقرأ في هذا الكتاب العتيق الذي ورثه عن جدته حنّة. يضع نظارتيه فوق أنفه الأسود الكبير ويقرأ حكايات «إيريني».

«بنته كان إسمها ايريني وخلاها تحكي بعد ما ماتت».

الحفيد يبدو غير مصدق، واسبيرو يقرأ وحده، ويستمع إلى صوته وهو يتحول إلى صوت شبيه بصوت جدته حنّة. النبرة نفسها، والتنحنح نفسه، والحفيد نفسه، لكن هذا الحفيد اسمه نبيل وليس اسبيرو. واسبيريدنيوس العجائبي سوف يزعل، ولا يعود مهتماً بغفران خطايا هذه العائلة الكافرة.

يمشي اسبيرو وهو يتكىء على عصاه بيده اليمنى، وحفيده نبيل إلى جانبه. يجول في شارع الحمراء ويبربر بصوت منخفض. والحفيد لا يسمع. وقف أمام غاندي الصغير وتكلم معه. الحرب أزالت الفوارق

بين الناس، فصار اسبيرو أبو طاقية يكثر من زيارة غاندي الصغير والتكلم معه. ولم يتوقف عن زيارته إلا بعد اكتشاف جثة الست نهى عون ليلة ١٥ أيلول ١٩٨٠. يومها قال للدكنجي السرياني حبيب ملكو «إنهم قتلة ولا نستطيع أن نفعل شيئاً». ولكن ملكو لم يكن موافقاً أن المسألة لها علاقة بالطائفية أو بعيد الصليب. كان ملكو الذي هرب جده من مارسين سنة ١٩١٧ مشياً على الأقدام، خلال المذابح في تركيا، لا يزال يتذكر قدمي جده المتورمين، وهو يتكلم التركية ويعصب رأسه بفوطة سوداء، وينام جالساً على الكرسي الخيزران.

ملكو على عكس جده لا يتوقف عن الكلام. هو لولب الحي. يقول بالراء التي يلثغها، واللام التي يأكل نصفها، «نحن أولاد العرب. الأخطل كان سرياني. كان يدخل على الخليفة الأموي ولحيته تنفض خمراً. أعظم شاعر عربي كان من بني تغلب، وبني تغلب سريان».

القسيس أمين الحريص على تقصي الاصول الغسانية لطائفة الروم الارثوذكس، التي لم يعد ينتمي إليها بفضل والده الكندرجي الذي صار بروتستانتياً على يد المرسلين الاميركان، القسيس أمين كان يضحك على ابن ملكو وعلى كلامه. «بني تغلب عرب وهيدا سرياني. شو الأخطل كان يقول شعر بالعربي ولا بالسرياني! شو السرياني عربي، العالم جنّت. نحن العرب. نحن هربنا لمن انهار سد مأربَ وجينا على حوران، وعملنا مملكة وتحالفنا مع المسلمين. بس شوفوا هالآخِرة. المملكة صارت مزبلة. شارع الحمرا صار مزبلة والسرياني صار حفيد الأخطل».

كان غاندي يحب حبيب ملكو، لكنه لا يعرف كيف يصادقه. فهذا الرجل الذي كان واحداً من أفضل مصلحي الساعات في بيروت،

وكان يملك دكاناً على باب إدريس، انتهى بعد أن شحّ بصره إلى شراء هذا الدكان القريب من منزله، وحوله إلى دكان يبيع فيه كل شيء. من الخضار إلى الدفاتر المدرسية. القسم الخلفي من الدكان مليء بالأواني العتيقة وببوابير الكاز. صارت هوايته اقتناء بوابير الكاز التي لا يستعملها أحد، وصفّها بعناية في رفوف القسم الخلفي من الدكان.

في الليلة الأخيرة قبل موته، وقف غاندي طويلاً أمام الدكان، حيث كان السرياني العجوز يفرك يديه الاثنتين ويقول: «خلصت الحرب، تفو على اليهود، بس اليهود صاروا عندنا، مين كان بيقول أن الجيش الاسرائيلي راح يوصل على بيروت. نحنا شو خصنا. يهود عال، بس المهم نخلص».

ترك غاندي الدكان لأنه لم يكن يعرف ماذا يقول. ترك الدكان ومشى وحيداً إلى جولته الأخيرة، حيث التقى أليس في بار «المونتانا». أليس يومها لم تحك كثيراً، لا أحد يعرف ماذا كانت ستقول. كانت مشغولة البال على صاحب أوتيل «سالونيكا»، هذا المصري الأبيض الذي لم يجد غير وسط البلد الذي سيتهدم كي يشتري فيه بناية ويحولها إلى فندق. وأليس التي تفهم عقلية الرجال، فهمتها على الطاير، فهمت منذ اللحظة الأولى أن هذا الرجل كان يدير شبكة دعارة ويهرب الحشيش. لكن مع تدهور الأحوال تحوّل الفندق إلى ما يشبه المأوى، ينام فيه من بقي من فتيات البار المصريات وكثير من العساكر وهي. وأليس كانت تقول: إن هذا العسكر لا علاقة له بالعسكر الذي كانت تعرفه، وتخاف على صاحب الفندق من العسكر الاسرائيلي، وتروي حكاية الملازم طنوس الزعيم.

«يا عيني على الشباب. كان مثل القمر، الخاتم بيزحط من راسه

لكعب رجليه، جمال وقامة ورشاقة. شاب خلنج. بس يا ضيعانه طلع مرا. قدام المرا الرجال بصير مرا. أنا بفهم الرجال.». قالت لغاندي «الرجال قدام المرا بصير مرا. بيعمل رجال وفصحنة قدام الرجال، بس مع المرا هو مرا، وهيك حالة إبنك مع مدام نهى».

وحكاية أليس مع الملازم طنوس حكاية طويلة، لا نعرف بدايتها، لكننا نعرف النهاية، لأن أليس تروي النهاية بشكل واضح، أما البداية فلا نفهمها جيداً، ربما لأن الأمور اختلطت في رأس أليس، أو لأنها لا تريد أن تخبرنا الحقيقة. البداية الغامضة تبدأ من لحظة هربها من «شكا». تروي أليس أنها ابنة وحيدة لأبيها، أمها ماتت ووالدها لم يتزوج. كان يشتغل صياد سمك ويسكر طيلة الوقت. هنا تروي أليس البداية بشكل كلاسيكي، فأغلبية المومسات في بلادنا، بدأن المهنة بعد أن قام والدهن باغتصابهن. وهذا هو حال أليس، تروي أنها عاشت طفولة بائسة، كانت خادمة منذ الثالثة من عمرها، ولا تذكر من والدها سوى رائحته الشبيهة برائحة السمك، وضربه لها، وإحساسها بالوحدة. كانت «شكا» قرية صغيرة يومها، وكان الرجل الذي يدعى عبود مراد، يقضي وقته بين البحر والمقامرة. تروي أليس أنه اغتصبها، تقول إن ذكرياتها حول الموضوع مشوشة، لأنها لم تشعر سوى بألم خفيف بين فخذيها حين جاءها في الليل وكان سكراناً. شعرت به فوقها لكنها ادعت النوم. لا تعرف لماذا لم تجرؤ على إشعاره بأنها مستيقظة. وعندما انتهى عاد إلى فراشه الموضوع على الأرض قرب فراشها، وسمعت شخيره، أليس لم تترك البيت مباشرة بعد ذلك. كانت في العاشرة من عمرها، وكانت تعتقد أن خروجها من البيت سوف يتم قريباً حين ستتزوج. لكن بعد الذي حصل، وهي فهمت ماذا حصل، لأنها كانت

تعرف، قررت أن تهرب، وجاءتها الفرصة بعد سنة. كان الرجل صديقاً لوالدها ويشتغل صياداً وفي الخامسة والأربعين من العمر، أي أكبر من والدها. قال لها إنه ذاهب إلى بيروت، ودعاها للمجيء معه. قال لها إن قريباً له في بيروت دبّر له عملاً كعتّال على البور، والغرفة مؤمنة، وأنه يريد أن يتزوجها. كانت أليس تعرف أن الرجل يكذب عليها، لكنها هربت معه، وعاشت معه في غرفة صغيرة قرب شارع «ويغان»، وهناك انفتحت الدنيا أمامها. بقيت مع الرجل ثلاث سنوات، لم يتزوجها ولم تسأله لماذا لا يتزوجها. كانت تعرف عندما هربت معه أنه لن يتزوجها. وفي شارع «ويغان» اصطادها أبو جميل وانفتحت الدنيا. كانت أليس في الرابعة عشرة، وكانت بيروت تبدأ. ليل بيروت كان يبدأ في أواسط الأربعينات، ومن هناك بدأت أليس رحلتها.

على الرغم من أن قصة هذه البداية تبدو شبيهة بجميع قصص المومسات، فإن أليس تختلف عن الأخريات، في أنها لا تدعي أن هذه المهنة لا تعجبها. هي قالت لي في أحد مساءات فندق «سالونيكا»، بعد أن حكت عن الملازم طنوس، وشربت نصف قنينة عرق وتوقفت ارتجافة يديها، قالت إنها كانت تكره في بعض زميلاتها، هذا الكلام الذي بلا طعم، والذي يتردد باستمرار عن كرههن للمهنة. تقول أليس إنها تمتّعت في حياتها كثيراً، وإنها عشقت وعاشت. «لولا الامبرزاريو أبو جميل كنت بقيت مع الختيار، في غرفة معتمة. كنت بقيت خادمة ببلاش. مع أبو جميل تغيرت الأمور، أخذني وستّتني وانفتحت الدنيا، ومعه اكتشفت اللذة الحقيقية، لذة أن أرقص وأشرب وأعيش. معه تعلمت الحب. لكن الحب الحقيقي كان طنوس، الله

يوجه له الخير. ما بعرف وين صارت أراضيه، بس بعرف شي واحد، أنه كان زلمي، وأنا قلت له يروح».

كانت أليس تعمل في ملهى «شاهين»، وهناك التقت بجورج ملك الليل. أبو جميل حذرها منه، قال إنه يقتل النساء، لكنه كان جميلاً بشكل خارق، جمال لا يمكن وصفه. شعر أشقر كثيف، وطول، وبياض، ومال. يجلس على الطاولة فيصبح الجميع في خدمته. يشير بيده فتنفتح قناني الشمبانيا، والمال يتساقط من جيوبه، وهو لا يسأل. رأى أليس بعد أن أنهت وصلتها الراقصة، أليس لم تكن راقصة، كانت تقدم الكؤوس للزبائن، وبين وقت وآخر ترقص عندما يطلب منها صاحب الملهى الحاج سليم الهبري أن تقدم وصلة قصيرة. طلبها ملك الليل فجاءت. لأول مرة تأخذها الرهبة وتسكر. جلست وصارت تشرب، وهو يوزع ابتساماته ونكاته على الجميع، ثم أخذها من يدها ومضى. لم تغير ثياب الرقص، ذهبت معه نصف عارية. أخذها إلى شقته وهناك أكملا السهرة حتى الصباح، هو يغني وهي ترقص، حتى سقطت من الاعياء. تركها في أرض الصالون وذهب لينام في غرفته. لكن قبل أن ينام، انحنى فوقها وقبلها، وقال إنه ينتظرها في الاسبوع المقبل، كي تأتي وتتفرج على ملهى «الابي كلوب». عندما نهضت أليس في الصباح لم يكن في الشقة غيرها. تلفنت لأبو جميل فجاءها مع ثيابها وأخذها إلى بيته. وبعد يومين مات الملك الأبيض، مات على سريره الذي وضعت تحته عبوة ناسفة. قيل إنه كان جاسوساً لإسرائيل. لكن أليس لم تصدق كل الحكايات التي رويت عن الملك الأبيض. طنوس أخبرها أن الليل بدأ يفلت، وعندما يفلت الليل يفرط النهار. لم تفهم أليس شيئاً، كانت تتضايق من طنوس لأنه كلما كان ينام معها، يبدأ

يحدثها في السياسة. يجلس على طرف السرير، ويشعل سيجارة «لاكي سترايك» من دون فلتر ويتكلم ويسعل. هي تخاف على صحته من هذه السيجارة اللعينة، وهو يتكلم في السياسة ويخبرها أسرار الليل، ويقول إن مشكلة الملك الأبيض أنه كان يبيع الأبيض، وأن مكافحة الكوكايين صعبة، لأنها تتم في مناطق لا سيطرة عليها. «الحشيش نحن نزرعه، نعرف الحكاية من الألف إلى الياء، يهربون إلى مصر وإسرائيل. بسيطة، الحشيش ثروة وطنية، وهو لا يضر بالصحة. أما الكوكايين فمن أين لا نعرف. هذا يعني أن الأمور أفلتت من أيدينا، الليل يهرب يا أليس والله يستر».

وأليس لم تكن تفهم كيف يهرب الليل، وما هي علاقة هذا الضابط بتهريب الحشيش، ولماذا قتلوا الملك الأبيض، اقتنعت أنه كان يشتغل مع إسرائيل، هكذا أخبرها أبو جميل، وكانت تحب أبو جميل. كان أبو جميل بشعره الأبيض وعينيه الصغيرتين وسماره الحادق، وتفاحة آدم التي تعلو وتهبط، يوحي لها بثقة غريبة. فهذا الرجل الغريب الأطوار، البيروتي حتى العظم، الذي لا يعيش إلا في الليل، يعامل فتياته كأنهن بناته.

«أنا رجل مؤمن»، كان يقول، «أنا لا آكل المال الحرام».

وعندما عرفت أليس أنه متزوج، ويعيش بشكل محافظ في منطقة «رمل الظريف»، وأن زوجته امرأة محجبة، لم تتعجب. رأت أليس في أبو جميل مثال الرجل الحقيقي. كان لا يشرب إلا نادراً. يضع الكأس أمامه ويتركه يعلو لأن الثلج كان يذوب، وكان هو يضيف ثلجاً فوق كأسه بشكل دائم. أبو جميل قال لها إن ملك الليل جاسوس، وأن الأرمني كسباريان هو الذي نظم الشبكة التي تصطاد الملحقين

العسكريين العرب، وتأخذ منهم المعلومات لصالح إسرائيل وأنه كان يقتل الفتيات بواسطة حقن الطبيب التركي الذي كان يشتغل معهم في الشبكة. وأن الأمور انفضحت. لذلك تخلص كسباريان منه وباع «الابي كلوب» وهاجر إلى البرازيل. الملازم طنوس قال إنها تنتهي دائما على حساب الصغار، كسباريان هرب والملك الأبيض مات.

يروي طنوس الزعيم أن حكاية الملك الأبيض بالغة التعقيد فهذا الفتى اليتيم الروسي الأبيض، الذي كان يدعى جورج إيفانهو التقطته الراقصة التركية «شهناز» وحولته إلى خادمها. صار بفعل السحر ملكا لليل بيروت. لا أحد يعرف كيف. استلم أشغال كسباريان وطار، ثم حين انكشفت اللعبة كان هو الضحية. أليس تذكر ليلتها معه، تذكر أنه كان جميلاً وحنوناً ويشبه الدموع.

«يا عيني عليه، كان مثل دموع العينين».

وطنوس يشتعل غيرة.

«أنت بتحبني لأنك بتغار. أنت ما بتحبني، أنت بتحب الغيرة، هيك كل الرجال».

لكن طنوس كان جاداً، إستأجر بيتاً وفرشه، وأخذ أليس إليه وقال لها «هذا بيتك».

أليس رفضت أن تترك الشغل.

«أتركي كل شيء أنا باخدك».

لكنها رفضت. لم أقبل قالت، لأني كنت أعرف بأنه سيتركني كل الرجال يتركون وأنا بقيت وحيدة، تلفتت وضحكت.

«شفت ما أنا هلق وحدي، ما إلي غير أبو عيسى». وأشارت بإصبعها إلى فوق.

طنوس لم يترك أليس بسهولة. عاش معها ثلاث سنوات. كان ينتظرها كل يوم أمام الملهى، ويذهب معها إلى بيتها. لا يتوقف عن شمّها. يقول لها إن رائحة جلدها تسحره، وأنه يحب جسمها. وكانت هي كالعاشقة. عرفت ذلك الشيء الذي يأخذك إلى لا مكان ويتركك تائهاً. بقيت أليس ثلاث سنوات تائهة. صحيح أنها لم تتوقف عن العمل، لكنها كانت تشعر بعينيه في كل مكان. كانت عيون هذا الملازم الشاب تسكنها.

«الدنيا كلها تحت إجريك».

وأحبته، لم تكن تريد الدنيا، كانت تريده. أحبته وأحبت أولاده وزوجته. لم يكن يكلمها عن زوجته أبداً. لكنها رأته معها ومع ولديه مرة واحدة. كانوا في مدينة الملاهي. أخبرها أنهم سيذهبون إلى هناك بعد ظهر الأحد، فذهبت. لم تضع ماكياجاً على وجهها، ولم تلبس كعباً عالياً، لبست فستاناً بسيطاً وربطت شعرها على شكل ذيل حصان، وذهبت. جلست على المقعد وحيدة تنتظر. ورأتهم. كادت تقوم من المقعد وتركض وتحضن الأولاد. لكنها لم تتحرك من مكانها. كان يلعب مع الأولاد ويأكلون البوشار وينظر إليها من طرف عينيه. ثم تقدمت منهم. كانوا يقفون أمام بائع «البيبسي كولا». تقدمت أليس فرأت الذعر في عيني طنوس، كان كأنه يرى عزرائيل أمامه. رأت ارتجافة وجهه وتقلص عضلاته، اشترت قنينة «بيبسي كولا» ومضت.

عندما جاء في اليوم التالي كان مذعوراً. قالت إنها أحبت الولدين وأن الزوجة جميلة، وأنها تحب كل شيء يحبّه.

لكنه بدأ يتغير. منذ مدينة الملاهي صار أكثر صمتاً، وصارت أليس أكثر حباً. ويومها فهمت أن الحب هو الغيرة.

«لا وجود للحب إلا إذا كنت بتغار، وبتشعر أنه الثاني مش إلك».

هكذا كانت تقول وهي تبرر تصرف حصن مع الست نهى.

«حصن يا سيد غاندي مغروم يعني ضايع، خايف أن المرا ما تكون معه كل الوقت وهيدا يفسر كل شيء.».

«الله يهديه»، قال غاندي وذهب إلى عمله. غاندي لم يعد يعمل شيئاً. حكاية مسؤولية النظافة لم تعد شيئاً. فمع التدهور المتواصل للوضع في بيروت عامي ١٩٨٠ و١٩٨١، إنتشرت المتفجرات في كل مكان. وصار الناس يخافون من أماكن تجميع النفايات، لأنها أصبحت المكان المفضل لزراعة المتفجرات في المدينة. فصار غاندي يكتفي بأخذ الأكياس السوداء من البيوت ورميها في المكب الكائن قرب سينما «الخيام». أما الإشراف على عمل شاحنة النفايات فلقد تخلى عنه. ومع الوقت تخلى عن لمّ الأكياس وتوزيعها. يمر في رأس كل شهر على البيوت ويأخذ حصته، كأنه صار شحاذاً. هكذا يشعر، أو كأنه يفرض خوّة على الناس. لكن كان من المستحيل أن يعود إلى عمله الأصلي. ولن يقرر العودة إلى هذا العمل إلا صباح ١٥ أيلول ١٩٨٢، حين دخل الإسرائيليون إلى بيروت، وامتلأت المدينة بأحذيتهم السوداء ولحاهم وروائحهم. يومها سوف يموت غاندي فوق صندوق البويا. وسوف تنتهي الحكاية. وعندما سوف تضيع آثار أليس سنة ١٩٨٤، بعد اشتعال الحرب من جديد في المدينة، فإن هذا سوف يقودنا إلى إضاعة آثار جميع أبطال

هذه الرواية. حتى القسيس أمين لن نعثر له على أثر في مأوى دار العجزة في الأشرفية.

حين أضاعت أليس آثار الملازم طنوس، أصابها اكتئاب شديد، وصارت تبكي طيلة الوقت. تكون في الملهى حيث تجلس مع الزبائن حتى الرابعة صباحاً، وتشرب معهم، وتتركهم يقتربون منها ويقبلونها، وتستمع إلى حكاياتهم، هناك كانت أليس تبكي كل ليلة ومع كل حكاية تستمع إليها، حتى كاد صاحب الملهى يستغني عن خدماتها، لكن الامبرزاريو أبو جميل أنقذها من الورطة حين أرسلها إلى الموصل. هناك اكتشفت أليس حباً مختلفاً وبدأت تنسى.

«أجمل شيء في الحب هو أن تنسى. الانسان إنسان لأنه ينسى»، هكذا كانت تقول، وهي تروي حكاية الزعيم الأوحد.

كانت أليس تعبانة من العمل ومن بيروت ومن طنوس الزعيم ومن دموعها. وثورة ١٩٥٨ زادت الشغل بشكل مخيف، خاصة بعد نزول «المارينز» الذين كانوا يسهرون حتى الصباح. ثم اختفى المارينز بعد حادثة السوق العمومي، حين خطف «أبو المنصور» أحد عناصرهم الذي كان في زيارة سامية القبطية، ولم يرده إلا بعد تدخل رئيس الجمهورية شخصياً، وبعد أن قبض المبلغ المرقوم.

وذهبت.

هذه المرة لم تشتغل في الملهى كما اتفقت مع أبو جميل، ذهبت مباشرة إلى «فندق بغداد»، وكان ممنوعاً عليها مغادرة الفندق أو التكلم مع أحد. وفي الليل كان يأتي الرجل نفسه ويأخذها إلى الغرفة السوداء. والحكاية التي حصلت قبل سنتين تكررت، لكن هذه المرة كان على أليس أن تنام على طرف السرير قرب الطاولة، لأن الرجل هكذا أمرها

في الليلة الأولى. شعرت أن يده اليسرى مربوطة إلى عنقه، لكنها لم تقل شيئاً، انتقلت إلى حيث أمرها. قبلها في كتفها واستلقى على ظهره دون أن يتحرك. قضت الليل كله وهي تنتظر حركة منه. حتى صوت تنفسه كان منخفضاً. ورائحته القديمة. رائحة ثيابه المليئة بالغبار والملح إختفت. صارت أليس تذهب إلى تلك الغرفة السوداء وتنام. وبعد أسبوعين، قررت العودة، قتلها السأم، وقتلتها هذه الجثة الغامضة التي تلبس كامل ثيابها وتنام إلى جانبها. لكنها لم تجرؤ على الكلام. ومضى شهر كامل. لا تعرف أليس من أين جاءتها الشجاعة. كان الرجل مستلقياً على ظهره كالميت، جلست أليس وقالت إنها ستسافر غداً. لم يجاوب. قالت إنها سئمت وإنها تقضي النهار كله في الفندق ولا شغل لها سوى حل الكلمات المتقاطعة في الصحف. لم يجاوب. قالت له إنها اشتاقت للرقص وسألته إذا كان يريدها أن ترقص له. لم يجاوب.

خافت أليس، خافت من أن يكون الرجل ميتاً، فهي منذ البداية لم تخالف طقوس هذه الغرفة السوداء، تبقى في مكانها جامدة في السرير، هو الذي يقترب ويبتعد. لكن لم يعد يقترب. يدخل، تلمح ظلاً يدخل، ويلقي بنفسه إلى جانبها، وينام. حتى القبلة انتهت. كانت أليس تريد أن تعرف، إذا كانت عيناه مغمضتين أو مفتوحتين. منذ ثلاثة أيام والسؤال يؤرقها. إقتربت منه، لكنه لم يتحرك هذه المرة أو يبعدها بيده اليمنى، كما كان يفعل. إقتربت وقبلته، كان بارداً، طعمه مثل سمكة ميتة. مدت أليس يدها إلى خصره، تراجع الرجل قليلاً. لا تعرف أليس ماذا حدث لها. شيء من الغضب أشعل جسدها كله، حين رأته يتراجع إلى الوراء، وصرخت: «شوبدك فيي، أنت مين يا خيي».

سمعت شخيراً أو مايشبه الشخير، وأحست أن الرجل يحاول أن يقف. تمسكت بـه، أمسكته من قميصـه، كاد القميص يتمـزق بين يديها، اقتربت أكثر ونامت فوقه وبدأت في تقبيله. كأن شيئاً اشتعل في داخلها. الرجل بقي جامداً كالسمكة الميتة. أليس لا تذكر ماذا جرى بالضبط، انحدرت، انزاحت من حده وانحدرت إلى الأسفل، أمسكته من خصيتيه وبدأت تشدّ. حين أمسكت لم تكن تقصد شيئاً، لكنه لم يتحـرك، بقي جامـداً، تنفّسـه ارتفـع قليـلاً. شـدت أليس أكـثر، وصرخت. ووسط صراخها الهستيري سمعت صـراخه. كـان كأنـه يعوي، دفشها وانتصب واقفاً.

«أنت أنت»، صرخت

«هش، هش»، زفر الرجل الواقف.

«أنت الزعيم الأوحد، عرفتك يا ابن الشرموطة».

ركض في الغرفة، ثم اختفى.

وهربت أليس، قالت أن لا أحد اعترضها، في اليوم التالي ذهبت إلى المطار ورجعت إلى بيروت.

الملازم طنوس لم يهـرب. يبدو أن زوجتـه عرفت. ففي أحـد الصباحـات حين كان طنوس يحلق ذقنه قبل أن يغادر إلى بيته، وأليس تقف إلى جانبه في الحمام تراقب الصابون فوق الوجه، والشفرة التي تنزلق وتحيل الوجه إلى مرآة، قرع الجرس. وضعت أليس الروب فوق قميـص النـوم الذي كـانت تلبسه، وفتحت البـاب، وفـوجئت. لم تستطع أن تفتح فمها.

«أنت أليس»؟ قالت المرأة.

«ايوه»، تفضلي.

وارتج جسم أليس، ارتجاجة خفيفة.

«وين طنوس»، سألت المرأة.

«تفضلي يا مدام».

دخلت المرأة، كانت زوجة طنوس شقراء الشعر، ذات أهداب طويلة، جسمها ممتلىء وبيضاء مثل الصابون.

«قولي له بدي شوفه».

«تفضلي يا أختي».

جلست المرأة على طرف المقعد، ووقفت أليس أمامها لا تدري ماذا تفعل.

«بتحبي فنجان قهوة».

«قلت لك بدي الرجال، وينو».

تركتها أليس وسط الصالون، هرعت إلى الحمام لترى طنوس عارياً أمام المرآة كالمذهول. فجأة رأت أليس كرشه الذي يكبر، وشعر ظهره الكثيف الذي يشبه شعر القرد. قالت له، حاولت أن تقول له، أشار لها كأنه لا يريد لصوتها أن يطلع. لبس ثيابه بسرعة وخرج إلى الصالون. ترددت أليس قبل أن تلحق به، وهناك رأته.

تقول أليس إنها كانت المرة الأولى التي تراه فيها. قبل ذلك لم تكن ترى. رأته واقفاً وزوجته واقفة، اتكأت أليس على المدخل الجانبي للصالون المحاذي لغرفة الطعام ولم تقل شيئاً.

قالت له زوجته أن يطلقها.

«طلقني يا طنوس طلقـني وتزوج هالشرموطة، بس خلصني أنا قالوا لي وما صدقت. مرت جورج وما صدقت، قالت لي زوجك مزوّج اثنين، وأنت مفكرتيه عم يشتغل كـل الليل. أنتِ حمـاره. قالت لي حمارة، وأنتَ بتجيني وجه الصبح تعبان وميت، أنا الميتة».

وبدأت تولول، وارتمت أرضاً وهي تـرتجف. خافت أليس أن يُغمى على المرأة، فركضت إلى المطبخ وجلبت فنجان ماء زهر وسكراً، وانحنت فوقها.

«قومي يا اختي، الله يعينك».

دفشت المرأة فنجان ماء الزهر ونهضت واقفة.

«امشي معي، ابن الشرموطة، والله لأفضحك».

هنا حدث أمر غريب. كانت أليس تتوقع أن يصرخ بها طنوس أو يضربها، لكنه أحنى رأسه أمامها ومشى إلى البيت.

وأليس حين تتذكره الآن، تتذكر كلباً أبيض لفّ ذنبه. ربما لأنها روت الحكاية عشرات المرات، كانت تنهيها دائماً بعبارة أنه «لف ذنبه ولحقها». أو ربما بسبب بنطلونه الأبيض وقميصه الأبيض، كان كـل شيء فيه أبيض، حين مضى. كأنه كلب صغير أبيض يلف ذنبه.

واختفى لمدة أسبوع. عاد وقال لأليس إنه يحبها، لكنـه لم يعد يستطيع أن يعيش معها في البيت.

قالت له أليس إن المسألة انتهت، وأنها أعدّت له أغـراضه في حقيبة، وأنها ستترك البيت في نهاية الشهر، وأنها استأجرت شقة صغيرة في عين المريسة.

عندما ودّعتـه لم تشعر بشيء، حتى عنـدما أصرّ أن ينـام معها

وقبلت، لم تشعر بشيء. أما الكآبة فجاءت لاحقاً. ضربتها كآبة مرعبة وصارت عاجزة عن الكلام في أي موضوع. مرة فكرت في أن تنتحر، وكاذت تنتحر فعلاً بحزام جلدي اشترته لطنوس ولم تعطه إياه في عيد ميلاده الثالث والثلاثين.

قال لها لم يبق سوى ثلاثة أشهر ويصير عمري ثلاثة وثلاثين، وأموت، كما مات المسيح في هذا العمر.

يومها ضحكت أليس عليه وعلى هذا الوهم، وذهبت واشترت له حزاماً، لكنه مضى قبل العيد.

كانت أليس تذهل من نوبات الإيمان التي كانت تصيب هذا الرجل. فهو في الكثير من المرات، وبعد أن ينام معها، يبدأ بالصلاة بالسريانية، يقيم قداساً مارونياً كاملاً وهو عارٍ، ثم يبدأ خطابه السياسي.

أخذت الحزام وقررت أن تعلقه في السقف وتنتحر. جلبت كرسياً، وقفت عليه، وحاولت أن تربط الحزام في الدائرة الحديدية المعلقة في السقف من أجل اللمبة. ربطته بالدائرة ونزلت، وغرقت في البكاء، صعدت إلى الكرسي وبدلاً من أن تشنق نفسها فكت الحزام، نزلت وذهبت راكضة إلى الشرفة ورمته وغرقت في الضحك، والبكاء.

غاندي كان حين يستمع إلى هذه الحكايات، يشعر أنه أهبل. فهو لا يستطيع أن يروي حكايات تشبهها. عاش بأمان وسترة، مغامراته القليلة في السوق العمومي، مرت هكذا بلا طعم، حتى مشهد التلفزيون المفتوح، والمرأة التي تتفرج وترفض أن تخلع صدريتها وتقول له أن يسرع، حتى هذه لم تكن أشياء تستحق أن تروى.

أما حكاية الابنة فهي من طبيعة مختلفة. والعذاب الذي خلقته له، وهو يأخذها من شيخ إلى شيخ، فهي حكايات تثير فيه الحزن وتدفعه للسكوت. وحصن لا يهتم بشيء، لا يهتم إلا بالمدام نهى. ولكن لماذا؟ هل لأنه يغار، أم هو يحبها فعلاً، أم لأنها تعطيه المصاريٍ؟ حصن لم يروِ لأحد حكايته الحقيقية مع تلك المرأة. بلى أخبر ربما قليلاً، أخبرها عن شعوره بالتفوق معها، عن شعوره بأنه رجل كامل.

حصن لم يرو الحقيقة والحقيقة لا تروى، هكذا اعتقد، لأنها حين تروى تصبح شبيهة بالكذب، وعندها لا تعود الحقيقة مهمة، بل تصبح الحكاية هي المسألة.

مسألة حصن، أو رالف، كما كانت مدام نهى عون تسمّيه، كانت بسيطة. فرالف الذي وضعه والده في المدرسة الانجيلية في رأس بيروت، بعد وساطة القسيس أمين والدكتور عاطف نزّال وغيرهما، أثبت أنه غير نافع.

«ابنك مش نافع يا مستر غاندي». قال له المدير الأستاذ نبيه خوري. «مش نافع يعني بضلّو مقشط، وراسه مش بالدرس، لازم تلاقي له شي مصلحة يتعلمها ويشتغل».

غاندي كان يريد لحصن أن يصبح دكتوراً مثل عاطف نزّال. فعاطف نزّال صار صديقه، ومعه اكتشف أن الدكتور ابن آدم مثل كل الناس. وحصن يجب أن يصير دكتوراً، لكنه كان متيّساً ولا يدرس، يتفرج على التلفزيون، أو يخرج من البيت ليلعب الفليبرز.

وبعد نقاشات طويلة ومعاناة وصبر، اقتنع غاندي باقتراح ابنه. قال الابن إنه وجد عملاً. كان حصن في التاسعة عشرة من عمره،

مربوع القامة، يميل إلى القصير قليلاً، شعره أسود ومرتب بعناية، عيناه صغيرتان. لا يشبه أباه في شيء، سوى في سمرته الداكنة، وتردّده في الكلام.

قرّر حصن أن يترك المدرسة لأنه كان يكره جوّ الإقامة الجبرية، ولأنه «مش نافع» كما قال المدير لوالده، ودبّر عملاً في «صالون أحمد»، في طلعة شارع مدام كوري في بيروت. العمل سحر حصن، هنا في الصالون صار اسمه رالف، وهنا اكتشف عالم الروائح.

كان يأتي باكراً في الصباح، يشطف الصالون بصابون له رائحة. يدلق الصابون السائل، المائل قليلاً إلى الاصفرار، ويشطف الأرض، ثم يرتب المقاعد ويمسحها بفوطة بنّية، وينتظر. كان مشغوفاً بشعر النساء. يرى الأشكال وهي تخرج من تحت أصابع السيد أحمد، فيشعر أنه أمام ساحر حقيقيّ، ويشم روائح الأصباغ والسبراي والعطور. علاقة رالف بالصالون كانت مدخله إلى عوالم النساء. هنا رأى النساء. نساء يختلفن عن نساء المهجرين الذين امتلأ بهم شارع الحمرا. أناقة وسحر وكلام بالعربية والفرنسية، وأحمد الحلاق بينهن كالساحر، وهن يتدلّلن عليه، وينتظرن بعد الشمبوان الذي يقوم به مساعده رفيق، دون ملل، ويروين الحكايات والنكات ويضحكن ويتصهصهن أمام عيني أحمد اللامعتين. مجلات وصور ونساء، ورالف يتفرج ولا أحد ينتبه إليه. ومع الزمن، بدأ رالف يتعلم على غسل الشعر بالشمبوان. هنا بدأت اللذة الحقيقية. الأصابع تفرك الشعر والمرأة تتدلّى. الرأس مرفوع إلى الوراء فوق عارضة الألمنيوم، والمرأة تستسلم لشعرها المتدلّي فوق المغسلة، ورائحة التفاح تفوح من اليدين. ربما يُسمى التفاح تفاحاً لأنه يفوح، لكن هذه الرائحة التي هي مزيج من التفاح والعطور التي

تذكّر برائحة الياسمين، كانت تسكر رالف. يداه تغوصان في الشعر وفي العينين المغمضتين، ورالف يعمل كأنه غائب عن الوعي. ترنّحه الرائحة، ويأخذه ملمس الشعر إلى قشعريرة في جميع أوصاله. تنهض المرأة بشعرها المبلّل إلى السشوار ويبدأ الكلام، وأحمد يقصّ ويرتب، وعندما ينتهي يعطي المرأة ما يشبه الوشاح المعدني، ويرش لها السبراي على شعرها.

أول مرة رش رالف السبراي على شعر المدام نهى عون أحس أنه يطير. السبراي يطير فوق الشعر، ورالف يطير حول المرأة كأنه فراشة. السيد أحمد كان سعيداً بهذا الشغّيل الجديد، فأغلب الشغّيلة المحترفين سافروا، صاحب المحلّ الأصلي جوزيف، غادر المحل وأعطى المفاتيح لأحمد وراح. «جوزيف كان شيئاً مختلفاً»، تقول مدام نهى، جوزيف كان عظيماً، أخْذُ موعد في صالونه كان مشكلة. أما الآن، بعد أن رحل، ورحلت معه نجوم المجتمع اللبناني إلى حيث لا نعلم، لم يعد الذهاب إلى صالون الحلاقة متعة.

جوزيف كان امرأة، أحلى من امرأة، هكذا كانت النساء تشعر في صالونه. إلفة ورشاقة وكلام نسائي وتفاصيل وضحكات تفرقع. أصابع طويلة، وجه طويل أبيض يميل إلى الاحمرار قليلاً، أنف طويل دقيق، رموش طويلة، حاجبان رفيعان، وصوت ناعم يطقطق فيه الضحك بسبب أو بدون سبب. جوزيف ذهب، ترك بيروت وقال إنه مسافر إلى روما، ولم يعد. يقول السيد أحمد، مساعده الأول الذي تسلم إدارة المحل، إنه يعيش في جونية، «ترك المصلحة وصار يتاجر بالأراضي». في اليوم الأخير لوجوده في بيروت الغربية، كان مصاباً برعب حقيقي، قبّل أحمد وقال له «يا تقبرني، هيدا المحل محلك،

انتبه، أنا راجع». حاول أحمد إقناعه بالبقاء، وقال له إنه يفديه بعيونه. لكن جوزيف كان خائفاً من أحمد. «أنا بخاف منك يا حبيبي، يعني يمكن تقتلني، شو بعرفني».

«ولو يا خواجه، أنت معلمي».

«معلمك أكيد، بس أنا رايح».

قبّل جوزيف أحمد وصار يبكي، ومشى ولم يعد.

أحمد لم يفكر يوماً في قتل الخواجه جوزيف. صحيح أنه قال لزوجته بعد أن عمّت موجة نسف المحلات، إنه صار يخاف، وإنه يفكر بإزالة اللافتة من أمام الصالون، ثم شتم جوزيف وكل المسيحيين، وقال إن هذا المحل محله، وأنه يشتغل فيه منذ ثلاثين سنة وبالكاد يجد خبزاً لإطعام أولاده. لكنه في حقيقة شعوره لم يفكر لا بقتل جوزيف ولا باحتلال المحل. فجوزيف هو الذي علّمه الصنعة. وعنده تعرّف على أجمل جميلات العالم. من صباح إلى فرح ديبا إلى أميرات أفغانستان. ومعه عاش كالملك، «جوزيف كان ملكاً»، يقول أحمد لرالف، «يرشّ المصاري والمصاري ما بتخلص، بس دايماً الملوك بتتبهدل بآخرتها، أنا ما خلّيته يتبهدل، الله يستره».

ـــ رالف كان يعلم أن مدام نهى لن تحبّه كما أحبّت جوزيف. أحمد روى له أنها كانت تحت أصابع جوزيف امرأة أخرى. كانت لا تقرأ المجلّات كغيرها، تستسلم كأنها دجاجة، وتبدو كأنها تتنهّد، أو كأنها على وشك الاختناق، وتخرج من عنده حلوة كالقمر، والابتسامة تحتل نصف وجهها، وجوزيف حولها كأنه إله.

«يا عيني على هيديك الأيام، مش مثل هلق. هلق منشتغل بالشعر كأنه شغل، وقتها الشغل كان فن، والنسوان كانوا نسوان».

لم تلفت مدام نهى نظر رالف بشكل خاص. حكاية جوزيف وتأوّهاتها كانت تثير في داخله مشاعر تطال جهازه التنفّسي. عندما كان يراها داخلة ويتخيل رقصة جوزيف حول شعرها، كان جهازه التنفُّسي يبدأ بالتقطّع، ثم ينسى. إلى أن بدأت هي. هي بدأت كل شيء.

«إنتِ بلّشتِ»، قال لها.

ضحكت وهي تستلقي عارية على سريرها العريض. ضحكت ولم تجاوب.

«إنتَ بتضحّكني يا ولد، تعا».

كان يأتي وينام معها كل الوقت وكل النوم. وهي تأخذه وكأنها تدخله إلى أحشائها، رالف يرتجّ داخل هذه المرأة البيضاء. بياضها يعمي الأبصار. كان رالف يطلب منها أن تطفىء الضوء، لكنها كانت تضيء النور دائماً.

«بحب شوف وجهك كيف يصير حلو، بحب شوفك».

كل شيء بدأ. كانت مدام نهى تتدلّى بشعرها تحت الماء، وحصن يضع الشمبوان التفّاحي الرائحة، ويغرق أصابعه داخل شعرها الأشقر الطويل. ارتفع رأسها قليلاً ونظرت إليه، لم تقل شيئاً، وأرجعت رأسها إلى الوراء.

«الميّ»، قالت، «الميّ».

«بتفضلّي بردّها شوي».

«لا، لا، الميّ حلوة كتير».

هزّت رأسها قليلاً واسترخت، وأكمل رالف عمله. انتقلت مدام نهى بعد السشوار إلى تحت أنامل أحمد. رالف لم يستطع أن يتوقّف

عن النظر إليها. لطخ جبين مدام اسماعيل باللون الأسود، وهو يصبغ لها شعرها. صرخت مدام اسماعيل، ركض المعلم أحمد ونظف لها جبينها بالقطن ورماد السجاير المخلوط بالماء، وحصن لا يهتم. يقف خلف كرسي مدام اسماعيل وينظر إلى نهى التي لم تنتبه لنظراته.

وبعد يومين التقاها في الطريق.

كان رالف خارجاً من عمله في الصالون، وهي تمشي ببطء في الشارع. سلّم عليها ومشى إلى جانبها، وذهبا إلى بيتها. نهى عون كانت تعيش وحيدة في بيت قديم عالي السقف، وحديقة مليئة بالأعشاب. رائحة الجوخ تملأ الحيطان. ابنتها الوحيدة تعيش في أميركا، وتكتب لها كي تترك بيروت وتأتي لتعيش معها. الزوج، الخواجة نجيب عون كان تاجراً للأجواخ في سوق الطويلة، مات عام ١٩٧٦ بالسكتة القلبية، ليترك لها ثروة كبيرة وابنة وحيدة، ودكاكين مدمّرة في الأسواق التجارية. الابنة تكتب لأمها كي تأتي إلى كاليفورنيا، والأم تجاوب أنها لا تستطيع أن تترك بيروت. صديقتها الوحيدة هي امرأة فرنسية متزوجة من لبناني من عائلة شاهين، وتعمل في المركز الثقافي الفرنسي في بيروت. الزوج خُطف مع بداية الحرب، وصارت الفرنسية تتنقل بين الشرقية والغربية بانتظار إطلاق زوجها. ثم سافرت. يئست أرليت وسافرت، وصارت مدام نهى وحيدة. كانت مدام نهى تعرف كل سكان الحي، لكنها تشعر أنها غير قادرة على التأقلم مع هذا الوضع الجديد. وكانت وكأنها تنتظر شيئاً ما. كتبت لابنتها أنها تنتظر، وأن بيروت هي مستودع الذكريات، لكنها لم تخبرها الحقيقة، والابنة التي تعيش مع زوجها وولديها في مدينة سان فرنسيسكو، كانت لا تفهم على هذه الأم. كتبت لها أنها لا تفهم عليها، وأنها يئست منها.

ورالف لم يكن يفهم.
قالت له إنها تنتظر شيئاً، وانها ستذهب.
و «أنا»، سألها.
ضحكت حتى كادت تموت
«أنت يا حبيبي».
قالتها بتطويل ساخر.
«انت يا ابني شوف مستقبلك، شو بدك مني، أنا قد أمك».
ضمها إليه وابتسم. ابتسم كمن يدّعي الفهم، دون أن يفهم شيئاً.

رالف كان غير قادر على التفكير. أخذته هذه المرأة إلى حيث لا يدري. كان ينام معها كل يوم، ويشعر أنها تشربه وتمتصّه. يذهب إليها في الثامنة مساء، يتعشّيان، ثم يدخلان إلى السرير. كانت العلاقة جنونيّة. هي كانت كالمجنونة. صراخها وتأوّهاتها كانت تملأ جسد رالف وحواسه. وهو حولها وتحتها وفوقها كأنه تائه.

أستطيع أن أنسى كل شيء، قال لربما بعد أن انتهت حكاية المدام نهى. قال لها إنه يستطيع أن ينسى كل شيء، لكنه لن ينسى تلك الليلة. كان المطر يملأ النوافذ، وكانت نهى بانتظاره. قال إنه لا يعرف ماذا جرى، لكنه كان كالطفل بين يديها. كانت هي تأخذه وتصرخ، وهو ينام معها، لكن الأشياء كانت تفلت منه، كانت هي كل شيء، وهو لا يذكر، هي كانت تعلو وتهبط وتجذبه وتبتعد.

يومها بكيت، قال رالف. الوجع كان في كل مكان. مفاصلي تؤلمني. وهي، صارت أحلى، صارت جميلة كما لا أحد. جميلة وتتوهّج بالضوء. لبست روبها الزهر، ومشت في البيت حافية، وصارت تغنّي،

وبقيت أنا على طرف السرير وحيداً، أشعر بها، ولكنها ليست هي.

قال رالف، إن نهى لم تكن نهى.

«كيف تكون المرأة هي غير المرأة»، سألت ريما.

«لا أعرف»، قال رالف. «والله ما بعرف شيء، يعني أنا كنت وهي كانت، بس أنا ما كنت. بعده صوتها لهلق بيرنّ، بسمعه وما بفهم، بحسّ إنه جسمي مش جسمي»

«ومعي أنا ما بتحس»، سألت ريما.

«لا، غير شكل، انتِ بحبك، هي كنت عشقان، كانت مسيطرة عليّ، انت لا، انت النوم معك مثل النوم».

ريما فكرت بحارس البناية، لكنها لم تقل شيئاً.

وحصن لم يقل شيئاً. لم يخبر والده أنه قتل المرأة، غاندي عرف وحده، أحس في عيني ابنه رائحة القتل، تلك الرائحة التي رآها للمرة الأولى في عيني الزيلع الذي تحول بعد ذلك إلى نعجة في ملهى «المونتانا». فكر غاندي أنه يستطيع تدبير المسألة مع الدكتور عاطف، فالدكتور عاطف كان صديقاً لجميع زعماء البلد، وهو يستطيع تخليص حصن من حبل المشنقة. لكن لا أحد حقق في موضوع مقتل مدام نهى. جاء شرطي من مخفر حبيش وكتب محضراً، ونقلت الجثة إلى مستشفى الجامعة الأميركية، واعتبرت الجريمة جزءاً من أحداث الحرب. ولم يعرف أحد كيف دفنت نهى أو أين. قيل إنهم لم يجدوا لها قبراً فدفنوها في مقابر «مار الياس بطينا» بشكل مؤقت، وقيل إنهم لم يجدوا لها كاهناً مارونياً يصلّي عليها فصلى عليها قسيس بروتستانتي

بشكـل مؤقت. على عكس مـا جرى للروسيـة البيضـاء، فيتسكـي نوفيكوفا، التي ماتت خادمة ودفنت كملكة.

مدام صباغة أصيبت بما يشبه الجنون. تلفنت لمطران بيروت، ووقفت أمام باب البيت تولول. جاء كل الناس، كل عائلات راس بيروت حضرت مأتم فيتسكي نوفيكوفا، وفي مقدمتهم مطران بيروت والقسيس أمين، وزعماء الأحزاب، حتى السفير السوفياتي قيل إنه كان ينوي الحضور، لكنه تأخر عن الموعد. وخرج التابوت من كنيسة «مار الياس» محاطاً بالنساء المتّشحات بالسواد، وبـالبخور، والأيقـونات، وأكاليل الزهور. وفي المقدمة وقفت مدام صباغة، وهي تلوّح بمنديل أسود، وإلى جانبها ابنتها المعتوهة التي لا تعرف أن تحكي. ومن يومها قيل إن مدام صباغة أصيبت بالجنون، صارت تلاحق القسيس أمين في الـطرقات، وتشتم وتنشر الفضـائح، إلى أن جـاء رجل قـال إنه من أقاربها، فأخذها هي وابنتها وذهبوا، ولم يعد يسمع بها أحد.

.رالف لم يكن يريد قتل مدام نهى. هو لم يقتلها . روى لريما أنها ماتت، زحطت فارتطم رأسها بمصطبة الحمام وماتت. قال رالف إنه نقلها إلى غرفتها لأنه كان يعتقد أنها ماتزال حية. رالف يكذب. «أنت كذاب يا غسان، أنت مجرم، وأنا بخاف»، قالت ريما وذهبت من البيت ولم ترجع.

رالف لم يكن يريد، مـدام نهى أخبرتـه. جاء إليهـا في المساء كالعادة. كان ما يزال يترنّح بفعل ليلة الأمس التي روى تفاصيلها لريما، والتي لا يعرف حتى الآن، كيف يرويها. جاء وكان يستعد ليقوم كالعادة بالحركات التي تضحكها. مدام نهى كانت تضحك كثيراً، عندما يقف رالف بعد أن ينتهي من ممارسة الجنس، ويبدأ بتقليد حركات القسيس

أمين، مشيته البطيئة كلماته التي تـأكل شفتـاه نصفها، و «أنتم ملح الأرض»، التي تخرج من بين شفتيه نصف مفهومة، جاء ليكتشف نهى تقول له «خلص».

«شو خلص»، سأل.

«خلص يا رالف يا حبيبي. أنا بدي أتزوج، أنا ما بقى بقدر، بعد أسبوع بدّي أتزوج، الله يخليك حلّ عني».

كان في صوتها نبرة جديدة، كأنها نبرة بكاء.

«وأنا، أنا شو».

«أنت الله يقويك، أنت شو بعرفني».

«وهو ، مين»؟

«قسطنطين، قسطنطين مخباط، تاجـر طويـل عريض، وكـان صاحب المرحوم زوجي».

«وقديش عمره»؟

«٥٦ سنة».

«بتحبيه»؟

«بحبّه وبحبّني، خلص يا رالف لازم تفهم».

كانا يجلسان في الصالون، في المكان نفسه حيث كانا يشربـان كأسين من الويسكي، ويأكلان عشاء خفيفاً قبل أن ينهضا إلى السرير.

روت له أن قسطنطين كان يحبها من زمان، وأنها كانت تصدّه. لم تكن تفهم، كيف وهو صديق زوجها يجرؤ على أن يكلمها عن حبه.

«لكني كنت مخلصة، لم أخرج معه مرة واحدة، كنت أسمح له أن يمسك بيدي بعض المرات القليلة، لكني لم أتجاوز هذا الحد».

«وبعدين شو صار». ؟

«مات زوجي بالحرب، وهو صار يتلفن كل يوم، ومنلتقي مرة بالأسبوع، أنا بروح لعنده على الأشرفية لأنه بيخاف يجي لهون».

«وبتّحبيه»؟

«قلت لك بحبه، شو عم نلعب».

«وبتنامي معه»؟

«شوهالسؤال، طبعاً».

«بتنامي معه ومعي بنفس الوقت»؟

«معك غيرْ شكل، هو بدي أتزوجه، أنت شي ثاني».

«أنت شرموطة، تعي».

لم تتحرك نهى من مكانها، وكان رالف يحاذر النظر إليها. جرى هذا الحوار دون أن ينظر إلى وجهها. نهى لم تخبر قسطنطين شيئاً عن علاقتها برالف، لكنها كانت تتعمد أن تنام مع رالف قبل ذهابها للقاء قسطنطين. وهي لم تكن تنام مع رالف كل يوم، كما روى لريما، أو كما يتذكر الآن، كانت تصده في الكثير من الليالي، أما في الليلة التي كانت تسبق ذهابها إلى الأشرفية للقاء قسطنطين مخباط، فكانت تتعمد أن تنام مع رالف، وتنهض في الصباح مجلوّة وجميلة، ورائحتها كرائحة الصابون.

لم يعرف رالف كيف مضى الليل. كانا في الصالون والساعة

تقترب من الواحدة صباحاً، وكانت مدام نهى تتثاءب. اقترب منها وأمسك بيدها.

«لا يارالف، خلص».

«شو خلص».

«خلصت القصة قلت لك، نحن خلص، ما بدك تروح على بيتكم، يلله قوم روح، تعا لبوسك وتصبح على خير».

اقترب منها، قبلته على خده، حاول أن يمسك بها فدفشته. سقط على الكنباية جالساً، حاول أن يقف فكاد يقع.

«أنت تعبان، بعملك فنجان زهورات»؟

«لا، ما بدي شي»، وحاول أن ينهض. وقف وبدأت الدنيا تدور به.

قالت له إنه يستطيع أن ينام هنا. «معليش فيك تنام هون إذا بدّك».

قامت وفرشت له على الكنباية في الصالون. خلع رالف ثيابه كلها واستلقى عارياً على الكنباية، وتغطى بحرام صوفي أخضر.

جلست إلى جانبه وقبلته في جبينه.

«بتعرف، أنا بحبك». قالت.

«وأنا بحبك».

كمشها من يدها وحاول أن يجذبها إليه.

قالت لا. وذهبت إلى غرفتها، وحولها قططها الثلاثة.

بعد أسبوع خرجت الرائحة من البيت، وعرف الجميع أن السيدة نهى عون ماتت مضروبة بشيء حادّ على رأسها، مما أحدث نزيفاً داخلياً أدّى إلى الوفاة. ولم يأتِ أحد إلى دفنها. حتى الخواجة قسطنطين لم يأتِ. قسطنطين كان مريضاً في مستشفى الروم، يعاني من تورّم في كبده، سوف يقوده إلى الموت في سريره وحيداً.

كانت ريما تستمع إلى حكاية غسان وتحاول الاقتراب منه، لكنه كان يبتعد. وفي ابتعاده كانت تشعر براحة غريبة.

مرة قالت له: إن الراحة تأتي من الخيانة.

«أنت بتخون، وأنا بحس إني حرة، الحرية هي الخيانة».

وهو كان ينظر إليها كأنها بعيدة. لم يستطع الاقتراب من ريما مرة واحدة. كان يخرج وإياها، كانا يسهران مع أصدقاء متنوّعين، لكنه لم يشعر مرة واحدة بذلك الهواء الذي يفترسه، كما كان يشعر مع نهى. لا يعرف كيف ضاعت رائحة نهى منه وسط أيامه المتوالية، لكنه صار كالبعيد عن كل شيء. في العمل صار كأنه لا يشتغل، والمعلم أحمد صار ينظر إليه بشكل مختلف، كأنه يخاف منه.

أليس قالت لغاندي إن حكاية حصن لا تخيف.

«الرجال هيك، بكرا بينسى كل شي، أحلى شي أنه فينا ننسى، سُمّي الإنسان لأنه ينسى، المهم تهتم بالبنت».

كيف يهتم بالابنة؟ وهو يعرف أن لا أحد يريدها. وفوزية زوجته صامتة. كل عمرها لا تتكلم. من يوم زواجها وهي لا تتكلم. حين يدخل غاندي إلى البيت، تدخل هذه المرأة في الصمت وتتثاءب طيلة الوقت، ولا تحكي. يناقش معها حالة البنت، لكنها لا تردّ أو لا تهتم.

لا شيء يحركها، لا شيء، كأنها غائبة عن الوعي. حتى الكلب لم تعترض عليه. قالت عندما أتى الكلب إلى بيتهم في النبعة «هذه نجاسة»، وبصقت. لكنها رضيت. كان غاندي يعلم أنها تشطف البيت كلما دخله الكلب، لكنها لم تعترض. وعندما قتل غاندي الكلب، بناء على نصيحة القسيس أمين، تحمّمت وأجبرت أولادها وزوجها على الاستحمام، كأن الميت واحد من أهل البيت.

قالت إنها تزيل النجاسة «أعوذ بالله من الكلب ومن نجاسته».

علاقتها بالبنت كانت تخيف غاندي. فهي لم تكن تحكي معها أو تطعمها، كأنها تريد قتلها. ولولا أن غاندي يحشو ابنته كل مساء، كما يحشو الدجاج، لماتت البنت من الجوع.

وغاندي لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل. الأيام صارت سوداء. مدام صباغة أخذوها، والقسيس أمين ضربه الخرف وذهبت به أليس إلى المأوى، وأليس صارت مختلفة، والمتفجرات في كل مكان. ورائحة المدينة صارت تشبه رائحة الكلاب. وغاندي صار يكره الكلاب ورائحتها. الكلاب الشاردة تملأ المدينة، والنباح يتصاعد كل ليلة. كأن الكلاب صارت تقف تحت النوافذ وتنبح. والناس تمشي، لا أحد يستمع إلى أحد. ولا أحد يحب أحداً. «لا شيء، إنها مدينة اللاشيء»، هكذا قال له الدكتور عاطف عندما التقاه ذات صباح. كان عاطف قد تغيّر كثيراً. قال إنه يعاني من آلام الأسنان، وأن طبيبه الدكتور جيديجيان نصحه بقلعها ووضع وجبة مكانها. وفتح فمه، فرأى غاندي فماً يشبه مغارة مهجورة.

«أعوذ بالله ياحكيم».

«شو بدنا نعمل يا ابني، العمر، ما بقى من العمر أكثر ما مضى».

«بس الوجبة مش حلوة، أنا خبروني عن الزرع، ليش ما بتزرع أسنان جديدة وبترجع شاب». قال غاندي.

«قال شاب، قال، شو فكرك رح نطوّل بهالديانة. منخلص قبع الاسنان، وقبل ما نركب وجبة منكون سافرنا».

«لوين من غير شر»؟

«لهونيك، على طريق الست ما تردّ».

«بسيطة يا حكيم».

«كيف بسيطة يا غاندي يا ابني. بدنا نموت وبتقللي بسيطة، لا مش بسيطة، هيدي جامعة، أنت مفكرها جامعة ومستشفى، بس يا لطيف، شو بدي قللك، شو مفكر يا سيد غاندي، والله شغلة البويجي أحلى من شغلتنا، البويجي بيشتغل بالدهان، والدهان ألوان، والألوان فن، أنت شغلتك أحلى من شغلتنا».

«بس أنا بطّلت وأنت بعدك حكيم، وبعدين شو رأيك، بكرا رح مرّ عليك، الله يخليك، هالبنت ما عم بتطيب».

«بكرا بترجع لشغلتك، ما تخاف. شو فكرك رح تضلّ الحالة هيك، ولجان شعبية وأكل هوا، وحرب بلا طعمة، بكرا بترجع الدولة وبترجع على مصلحتك».

«والبنت يا حكيم»، سأل غاندي وهو يرى الطبيب يهم بمتابعة سيره.

«قلتلك بكرا البويا، انتبه على البويا».

وذهب الدكتور عاطف، ولم يعد غاندي الصغير يراه. قالوا إنه لم يعد يخرج من بيته، ولم يعد يفتح بابه لأحد، وأن زوجته تصاب بنوبات من الإغماء، وهو يرفض أن يأخذها إلى المستشفى، ويقول «الشافي الله».

وأليس لم تعد تنام.

منذ إقامتها في فندق «سالونيكا»، وهي تصاب بالأرق طول الليل.

الرحلة كانت طويلة، قلت لها.

فسألتني عن أية رحلة أحكي.

لا شيء قلت لها، الكتاب.

أي كتاب سألت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لم أجاوب، قالت إنها تريد دواء منوماً، لكنها تخاف أن تشرب الحبوب وتموت، ويقولون إنها انتحرت، والانتحار حرام.

«الانتحار حرام يا ابني».

وأليس التي لم تعد تستطيع أن تنام، صارت خادمة. خسرت عملها في «البلو أب»، بعد مقتل العسكري، ثم خسرت شقتها في عين المريسة بسبب الزعرنة. غاندي دبّر لها عملاً كبائعة أزهار في ملهى «المونتانا». أما البحث عن مسكن خاص بها فكان صعباً. نامت في «المونتانا» سنتين، وهناك كانت تشعر بأن مفاصلها تتكسر بفعل الرطوبة. ثم التقت بهذا المصري الأبيض في البار، كان يبحث عن شيء. حتى الآن لم تتأكد أليس تماماً عن ماذا كان يبحث. أليس تعتقد

أنه كان يبحث عن كزليات، وأنه أراد تأسيس شبكة دعارة خاصة به، وأنه رأى فيها إمكانية أن تلعب دور المصيدة، فاقترح عليها الفندق. سألته لماذا. «أنا عاوزك مستشارة يا ستي، نامي وماتدفعيش. أنت ثروة».

وصارت تنام هناك، الحرب استمرّت على عكس توقعات الخواجة المصري، الثروة تبخّرت، والفندق تحول إلى نقطة تجمّع للمومسات المتقاعدات والجنود. وأليس صارت مجرد خادمة ولا أحد يهتم بها.

- ٥ -

قالت أليس إنه مات.

«جئت ورأيته، وغطّيته بالجرائد، ولم يكن أحد، زوجته اختفت، كلهم اختفوا، وبقيت وحدي».

قالت أليس إنها أخذته إلى المقبرة، ورأت الناس بلا وجوه. «صار الناس بلا وجوه»، قالت لي تكلمت معهم ولم تسمع أجوبتهم، ثم تركتهم وراحت. وهكذا انتهت الحكاية.

«أخبريني عنه»، قلت لها.

«كيف أخبرك» جاوبتني. «أنا كنت أعيش كأنني أعيش معه ولا أعرف. عندما تعيش لا تنتبه. أنا لم أنتبه لشيء، فقط لا أعرف». هزت رأسها ورددت جملتها «بعرف أنه راح وراح ببلاش».

أذكر كلمات أليس وأحاول أن أتخيّل ما حدث، فأكتشف ثقوباً في الحكاية. كل الحكايات ملآنة بالثقوب. لم نعد نعرف أن نروي الحكايات، لم نعد نعرف شيئاً. وحكاية غاندي الصغير انتهت. الرحلة انتهت والحياة انتهت.

هكذا انتهت حكاية عبد الكريم حصن الأحمدي المغايري، الملقّب بغاندي الصغير.

الموت أسود.

كانت الجرائد التي تغطّي جسد الرجل الصغير تتحلّل تحت مطر أيلول الخفيف. اللون الأسود يرشح من الجسد، والجسد ينتفخ. المطر الخفيف يهطل دون صوت، والجرائد تتبلّل وتصبح شفافة، والكلمات السوداء تنزلق منها. اللون الأسود يتدحرج على الطريق وقرب حافة الرصيف المليء بأكياس النفايات السوداء.

كل شيء كان أسود. أحذية الجنود، بنادقهم، وجوههم، وصراخهم وسط الشوارع، وأزيز رصاص بنادقهم الذي يمزّق الأبنية والنوافذ.

رصاص، وسكوت. فجر من المطر الخفيف والأحذية، والمدينة تستيقظ كأنها تنام.

في شارع مدحت باشا، على بعد أمتار قليلة من شارع الصيداني، يركض أحمد السنبك. وجد السنبك فوق تلة من النفايات لباساً عسكرياً مرمياً ومجعلكاً. التقطه، لبس البنطلون الكاكي فوق بنطلونه الأزرق، ولبس القميص العسكري فوق قميصه الأخضر. خلع حذاءه البنيّ، ولبس البوط المطاطي الأسود، ووضع طنجرة على رأسه، وصار يركض في الشوارع.

كان أحمد السنبك يتلفّت يميناً وشمالاً، ويضحك، فتظهر أسنانه الصفراء المكسورة، ويركض في الشوارع. انحنى، التقط قطعة من الخشب، وضعها تحت إبطه كأنها بندقية رشّاشة، صوّبها باتجاه الشارع أمامه، وبدأ يطلق النار. صار يركض ويرش بها محدثاً صوتاً صاخباً من شفتيه. يقفز فوق النفايات، وبرك المياه الصغيرة التي تجمّعت في حفر الشوارع، يقفز يسقط على الأرض، ينهض ويتابع معركته.

على مدخل شارع الصيداني أصيب أحمد السنبك بخمس طلقات. نزف الدم من ظهره، لكنه تابع الركض. أليس التي كانت تقف أمام جثة غاندي الصغير المنتفخة بالماء، تروي أنه تابع الركض كأنه لم يصب. كان يركض وحنفية الدم تتدفّق من ظهره وهو لا يلتفت إلى الوراء. ركضه بدأ يتباطأ، صار يمشي وهو يركض، ثم سقط كأنه يمثّل، وقع على ركبتيه وسقط رأسه إلى الخلف، وارتفع صراخ الله أكبر.

أبو سعيد المنلا هو الذي صرخ. خرج إلى الشرفة وصرخ الله أكبر. كان صوته عالياً ومبحوحاً كأنه حشرجة. وارتفع صراخ الله أكبر من المآذن والشرفات. فجأة صارت المدينة المهجورة المدمّرة، تصرخ من مآذنها بصوت واحد. الجنود الإسرائيليون الذين كانوا يحتلّون الشارع، ويطلقون النار على كل شيء، صوّبوا بنادقهم باتجاه شرفة أبو سعيد، وأطلقوا. أصيب أبو سعيد، صار الدم يخرج من صدره، كأنه نافورة، سقط على أرض الشرفة متخبّطاً، وارتفعت أصوات الله أكبر من كل المآذن. سمع الجنود، أطلقوا النار ثم سكتت بنادقهم. فجأة بدأوا يتراجعون كالخائفين. انحنوا تحت الشرفات، واستندت أجسامهم المتعبة على الحيطان، وقرفصوا أرضاً. وأحمد السنبك، بقي في مكانه راكعاً، ورأسه مرميّ إلى الخلف كأنه يصلّي.

بكت أليس وولولت. لم تكن تدري هل هي تبكي على غاندي أم على السنبك أم على أبو سعيد، أم لأنها سمعت صرخات الله أكبر.

سألتها عن السنبك، ابتسمت، ومسحت عينيها بورقة كلينكس، كأنها أرادت أن توحي لي بأنها على وشك البكاء. قالت إن الجميع يعرفون السنبك، ولا أحد يعرف ابن من هو، أو من أين أتى. كان مجنون الحيّ، يقف وسط شارع الحمرا وبيده قطعة قماش رمادية،

يمسح بها زجاج السيارات التي يضطرها ازدحام السير إلى التوقف وسط الشارع. والسائقون كانوا يتأفّفون منه. فهو عندما يمسح الزجاج يوسخه بدل أن ينظّفه، يترك عليه بقايا شبه سوداء. السائقون كانوا يدفعون له، ويقبلون فوطته الوسخة خوفاً من غضبه. فالسنبك لم يكن يقبل أن يسخر منه أحد. مرة خرج أحد السائقين من سيارته ودفع له، وطلب منه أن لا يمسح زجاج السيارة. فما كان من السنبك إلا أن كسر زجاجة السيارة الأمامية بضربة واحدة من قبضته. بعد هذه الحادثة تغيّر السنبك، لم يعد يكتفي بمسح زجاج السيارات، بل صار يقف ويصفّر، ويؤشّر للسير ويعطي الأوامر.

لم يكن أحد يعرف عنه شيئاً سوى أنه قادم من قرية صغيرة في منطقة البقاع. لم يقل اسم القرية لأحد، وكان وحيداً، يعيش في كوخ خشبي صغير قرب ثانوية «رمل الظريف»، يشرب الببسي كولا أمام كوخه ويغنّي بصوت منخفض.

ماذا جرى لأحمد السنبك صباح ١٥ أيلول ١٩٨٢؟ هل كان جزءاً من بحر الدم الذي ستغرق فيه المدينة، أم كان صرختها المكتومة وسط الرعب الذي دكّ مفاصلها، خلال ثلاثة أشهر من القصف والحصار؟

أبو سعيد المنلا، قال في المستشفى وهو يستمع إلى أخبار مذبحة شاتيلا وصبرا، وإلى أخبار الخوف الجماعيّ الذي اجتاح بيروت، قال إن شيئاً خفيّاً في داخله جعله يصرخ. وهو لا يعلم لماذا ارتفع صراخ المآذن، فالوقت لم يكن وقت صلاة.

في ذلك الصباح، يقول الناس، كانت أصوات المؤذّنين مختلفة.

ففي بيروت، كما في جميع مدن بلادنا، لم يعد المؤذّنون يصعدون إلى المآذن لرفع الآذان. صاروا يستبدلون الصعود بالاسطوانات المربوطة إلى مكبرات الصوت. أما في ذلك الصباح، فلقد اختلفت الأمور، لم يكن هناك اسطوانات، كانت أصوات المؤذّنين وكأنها تجرح سماء المدينة. كأنها جروح تتعالى وسط صمت يتخلله إطلاق نار، ووجوه تطلّ من النوافذ كأنها أقنعة. ولا يبقى سوى دعسات سريعة للجنود، وأصوات طلقاتهم المتفرّقة، والخوف الأسود المرسوم على قسمات وجوههم، وكان أنين الجرحى الذين يحتضرون في الشوارع المهجورة، يرتفع خافتاً، دون أن يستمع أحد إلى استغاثاتهم الأخيرة.

هكذا تكون النهايات. حشرجة وأصوات ترفع الآذان، وأنين خافت، يغطي شوارع المدينة المهجورة.

والدة غاندي لم تقل له إنها لم تسمع صرخاته الأولى، لأنها جاءت مع صلاة الفجر، وكان صوت مؤذن «مشتى حسن»، الشيخ خليل، يتردّد صداه بين حيطان البيوت الترابيّة السوداء. هكذا ولد غاندي الصغير، بعد ستّ بنات، وصلوات ونذور، قامت بها الأم نفيسة ابنة الحاج محمود الخياط. الصلوات لم تنفع، وحصن بن عبد الكريم، والد غاندي، تزوج ثلاث نساء أخريات، بحجة أن زوجته لا تنجب، وكانت آخرهن تلك الغجرية ذات الشعر الأسود الطويل التي قادت غاندي إلى مغارة الهرب.

كانت نفيسة قد تزوّجت حصن منذ سبع سنوات، ولم تحبل. بعد السنة الأولى تزوّج امرأة ثانية، وبعد سنتين تزوج ثالثة. وليلة ولادة غاندي الصغير كان يعقد على الغجرية. لكن زوجاته لم ينجبن له سوى

البنات. يوم ولادة وريثه الوحيد، كان ينام في كوخ في أقصى القرية مع غجريته، ولم يجرؤ أحد على الذهاب إليه لإخباره. عندما عرف في اليوم التالي، وجاء إلى نفيسة والسعادة تتراقص في عينيه، كانت المرأة غير قادرة على الكلام. الحمى تلفّها من رأسها إلى قدميها، وكلمات الهذيان تسقط من فكّها الأسفل. رأسها كان مربوطاً بعصبة بيضاء، وحولها نساء حصن. أخذ حصن ابنه بين يديه، وقال عبد الكريم، جاء عبد الكريم، وصلّى فوق رأسه، ثم انحنى فوق نفيسة وقال لها شيئاً لم تسمعه النساء الأخريات. طلب من الداية أن تكحله، وأعاده إلى سرير أمه. وبعد أربعين يوماً ماتت الأم. قالوا إن الغجرية كتبت لها. الأم ماتت ورضع عبد الكريم من زوجة أبيه الثانية، وعاش بين النساء والفتيات، في قرية صغيرة، وفي عائلة عادية، لا شيء فيها، سوى صورة هذا الأب الذي يكثر من الرحلات، ويضرب زوجاته.

لا يذكر عبد الكريم كيف فقد عينه اليسرى، تعوّد أن يعيش بعين واحدة، وأن يرى كل شيء، دون أن يشعر بأن عينه اليسرى غير مبصرة. قالت خالته إن الدم نزف من عينه وكان عمره أربعين يوماً. الأم ماتت، والدم نزف من عين الطفل، أخذته خالته المرضعة إلى الشيخ إبراهيم الحكيم الذي عصر فيها الأعشاب، لكن العين لم تشف. صارت حمراء ومبقعة باللون الأسود. أخذته خالته إلى بدويّ كان مشهوراً بأنه يشفي الحالات المستعصية، قال إن العين يجب أن تكوى، جلب مسماراً وحمّاه على النار وكوى به العين فانطفأت.

«كل عمري عايش بعيني اليمنى، بشوف على اليمين، تعوّدت

وماشي الحال. ما بعرف لشو الله خلق عينتين، هيدي حكمته يمكن، أنا ماشي الحال هيك».

هكذا قال غاندي الصغير، بعد هذه الحادثة بسنوات طويلة للدكتور عاطف، الذي عرض عليه أخذه إلى أحد أطباء العيون في مستشفى الجامعة.

«بلاها يا حكيم»، قال غاندي وأكمل مسح الحذاء.

لا يذكر غاندي طفولته، فالطفولة في «مشتى حسن»، مرّت كأنها لم تكن. يعرف أنه ولد حوالي عام ١٩١٥، وأنه ذهب في طفولته إلى كتّاب القرية، حيث حفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره، على يد الشيخ زكريا حامد الضرير، ثم ذهب إلى مدرسة الراهبات لمدة سنتين، توقّف بعدهما والده عن دفع القسط المدرسي، فاضطر للبقاء في البيت. لا يعرف لماذا لم يكن والده يأخذه معه إلى العمل، كان يتركه في البيت كأنه إحدى فتياته الكثيرات. يذكر أنه كان مقرفصاً طيلة الوقت أمام بيتهم الأسود في «مشتى حسن». يذكر الجرف الصخري الكبير الذي يفصل قريتهم عن قرية «مشتى حمود». يذكر حقول الذرة الخضراء التي تمتدّ إلى ما لا نهاية.

لم يكن غاندي الصغير يأكل في البيت، كان يجد نفسه في غالب الأحيان، مطروداً من زوجات أبيه وبناتهن. الوالد لم ينجب إلا صبيا واحداً، وامتلأ بيته بالزوجات والبنات. وكان الوالد كئيباً ومتوحّشاً. يضرب زوجاته ويقهقه. يذكر غاندي القهقهة العالية التي تخرج من الغرفة المغلقة بستارة. لكنه لا يذكر كلمات أبيه.

لا يذكر غاندي من قريته التي هرب منها، سوى طرقات ضيّقة

وتراب وحصى، وبرد شديد يجعل الأسنان تصطك. كأنه لم يعش في تلك القرية إلا كالنائم. يذكر أن لذّته الكبرى في الحياة كانت النوم. كان بيتهم يتألف من غرفة كبيرة وغرفة صغيرة معزولة بستارة بنية اللون. الجميع ينامون في القاعة الكبيرة التي تتحوّل في النهار إلى دار يستقبل فيها الضيوف. الأب وحده كان ينام على السرير النحاسيّ في الغرفة الصغيرة مع إحدى زوجاته.

يذكر غاندي أن النوم كان يعني النساء. ينام في غرفة كبيرة مليئة بالنساء، وحوله أصوات وخلافات وصراخ. الدار الكبيرة تمتلىء أرضها بالفراش، وعليها تنام النساء وحولهن بناتهن، وهو ينام وحيداً في الزاوية الجنوبية. وكان يلتذّ بوحدته. هناك اكتشف غاندي اللّذّة. في الزاوية الجنوبية وحيداً، وحيث يرى بعين واحدة، اكتشف غاندي ظلال النساء وهن يخلعن ثيابهن ويضحكن، ورائحة العطور تخرج من قمصان النوم.

وغاندي عاش وحيداً في القرية. لم يكن الوالد فقيراً، لكنه لم يكن يملك أرضاً، باع أرضه من أجل الزواج، وكان يملك دكاناً في «العريضة»، وهي قرية تبعد حوالي نصف ساعة مشياً عن «مشتى حسن». يذهب إليها الوالد كل يوم راكباً على حمارته، ويعود في المساء محملاً بالطعام.

غاندي لم يكن يأكل إلا في المساء، حين يعود الوالد. ساعتها يجلس مع الوالد وحدهما أمام صينيّة الأكل الموضوعة الى الأرض، ويأكلان، وحولهما النساء يذهبن ويأتين، دون أن يجلسن إلى المائدة. كان غاندي يفضل أن يأكل بعد انتهاء الوالد، حين تتحوّل صينية الطعام إلى حفلة تتناتش فيها النساء والبنات قطع الخبز، وحبوب

الحمص المزروعة فوق أكوام البرغل. كان غاندي حين يجلس مع والده حول الصينية الكئيبة، لا يشعر برغبة في الأكل. فالطعام مع الوالد كان طقساً حزيناً وصامتاً، لا يسمع فيه غير الشفتين وهما تطبقان على الطعام. لكن، لم يكن مسموحاً له أن يأكل مع النساء. وكانت الغجرية التي تزوّجها والده لحظة ولادته تطرده من الدار. يرى بياض عينيها وهي تشير له بالخروج، فيشعر بالخوف ويمضي. يذهب إلى الباحة قرب الباب ويقرفص ويستمع ويتلقى فتات الخبز والطعام من إحدى شقيقاته، ثم يذهب في جولاته اليومية وسط الطرق الترابية السوداء.

لا يذكر غاندي شقيقاته، يخالهنّ فتاة واحدة. وحين عاد إلى القرية يوم دفن والده، لم يعرف أحداً منهن. قبّلهن وقبّل أزواجهن، لكنه لم يشعر أنهن شقيقاته. وحدها الغجرية كانت هناك جزءاً من ذاكرة العينين البيضاوين، وشعر نحوها بعطف خاص. كانت تبدو، بثيابها الرثّة، ووجهها المليء بالبثور، كالشحاذين الذين يلتقي بهم كل يوم في بيروت. طلبت مالاً فأعطاها، أخبرته أن خالته خديجة، التي أرضعته من ثدييها، ماتت من سنتين، وأنهم بعثوا له أن يأتي، لكنه لم يأتِ.

كان غاندي وحيداً وسطهنّ. أعطى الغجرية مالاً وقرّر أن يعود إلى بيروت. وفي الحقول التي لم يتعرّف إليها، لم يذكر سوى الرائحة. عندما كان يمشي في ليل القرية، بعد أن يغادر المعزّون، لم يكن يشدّه إلى المكان سوى الرائحة. الرائحة وحدها بقيت من الطفولة. فالطفولة هي مجموعة روائح، والعالم الذي نتركه خلفنا لا نعود إليه، لأننا لا نعرفه. كان غاندي لا يعرف شيئاً.

وفي القرية تزوّج ابنة عمه.

كان عمه بائعاً للترمس في طرابلس. رآه في العزاء، ولم يعرفه. الفقر أكل عينيه، والعمر أحاله إلى بقايا رجل. فعائلة حصن أحمد، التي تعود إلى سلالة «المشايخ» في منطقة عكار، فقدت أملاكها بفعل الزمن والخوف والزواج. والد غاندي باع الأرض من أجل أن ينفق على زوجاته، وعمّه اضطرّ إلى الهجرة من القرية بعد حادثة طلاقه من زوجته الثانية ابنة سعيد زهرمان. جاء والدها وأجبره على دفع عشرة أضعاف المؤخّر. جاء ومعه رهط من رجال قبيلته المسلّحين. قال زهرمان إنه سيهدم «مشتى حسن» على من فيها، فاضطرّ العم المسكين إلى بيع قطعتي الأرض الوحيدتين اللتين بقيتا له، ودفع، وأخذ زوجته وأولاده هارباً من القرية، وعاش في طرابلس. ولم يعد إلى القرية إلا في زيارات متقطّعة.

واليوم، خلال دفن حصن والد غاندي الصغير، جاء العم إلى غاندي، كان يجلس إلى جانبه ويحك أنفه ويتمخّط، ثم التفت إليه وحدّثه عن ابنته. وافق غاندي على الزواج. كان في العشرين ويريد أن يبدأ عملاً جديداً. عاد وتزوّج الفتاة وأخذها إلى بيروت.

في اليوم الأول، خاف منها، وهما في سيارة السرفيس التي نقلتهما إلى حلبا، في الطريق إلى بيروت. رأى بياض عينيها، وتذكّر بياض عيني الزوجة الغجرية. قال ستقتلني والأفضل أن أطلقها. لكنها بقيت معه وأنجبت له سبعة أولاد، ماتوا كلهم قبل أن تنجب حصن وسعاد. وأهلكته بالمستشفيات والخوف عليها من أن تموت.

كانت امرأة صامتة. حين يأتي إلى البيت تجلس ساكتة ولا تسأل. تنظف البيت وتطبخ، لكنها لا تهتم بشيء. وغاندي يتحمّل وحده عبء هذه الابنة التي لا تحتمل.

لا يذكر غاندي الكثير من «مشتى حسن».

نحن لا نملك فيها شيئاً، قال لي. «لمن ما عندك أرض، يعني ماشي، مشتى حسن يعني ماشي، حتى البيت اكتشفنا أنّ الوالد كان راهنه.. النسوان ما بعرف، رجعوا على بلادهم، والبنات تزوجت، وأنا هون».

قال غاندي إنه ذهب مرة واحدة إلى القرية بعد موت والده. «ذهبت إلى ابن عم بعيد لي، وهناك اكتشفت أن الدنيا تغيرت. كانت رائحة التفاح تملأ الأرض. توقفوا عن زراعة الذرة والقمح وزرعوا التفاح. كان التفاح في أواخر آب يتدلّى، وتفوح رائحته وسط السهل. من يومها أحببت التفاح، وكنت قبلاً لا أحبّه. كان التفاح في فمي يشبه طعم البطاطا، وكنت أتعجّب من الأستاذ الأميركاني الذي لا أراه في الشارع إلا وهو يمسك تفاحة بيده اليمنى ويقضمها، بينما الكتب والدفاتر تكاد تتساقط من يده الأخرى. الآن صرت أحبّ التفاح، رائحته على الشجر تكسر القلب».

غاندي يذكر حكاية الليرة.

يذكر أنه عندما هرب من المغارة، في تلك الليلة السوداء، وارتمى بين حقول الذرة، ومشى. يذكر أنه توقف أمام دكان الحاج اسماعيل وسرق ليرة من جاروره. كان الحاج اسماعيل رجلا غريبا. عندما يقبض العملة من زبائنه يمزّقها إلى نصفين، ويضعها في مجموعتين مستقلتين على طرفي جاروره، هكذا لا يستطيع أحد سرقته. وحين يريد، يلصق قطعتي الليرة ببعضها، فصارت كل ليرات القرية ملصقة في وسطها. كان الجارور مليئاً بأنصاف الليرات، أخذ غاندي الصغير

نصفين، لم يكن متأكداً أنهما لليرة واحدة، خاف أن يتأكد فيكمشه الحاج اسماعيل وهو يعبث بجارووره. ثم كيف يتأكد وهو لا يعرف وجه الليرة من قفاها. أخذ النصفين وركض، ألصقها بقطعة من الصمغ انتزعها من شجرة لوز، وأوقف سيارة شحن على طريق حلبا. لوّح بالليرة فتوقف السائق. أركبه في الخلف بين شوالات القمح وأخذه إلى طرابلس.

هناك، في الميناء، حيث توقّفت سيارة الشحن، رأى غاندي البحر وخاف. كانت المرة الأولى في حياته التي يرى فيها شيئاً كبيراً يتموّج هكذا، أزرق وملوناً. وقف أمام البحر كالأبله، لا يتحرّك.

«لوين رايح»، سأله السائق.

«ما بعرف، لهون».

«أنا باخدك عند رشيد، بتشتغل عنده صبي فرّان».

أومأ غاندي برأسه وذهب واشتغل هناك لمدة أربع سنوات. نام في الأشهر الأولى داخل الفرن، ثم انتقل إلى غرفة أم عمر الحسيّة. كان يدفع لها فرنكين ورغيفي خبز يومياً. أم عمر كانت صماء لا تسمع، لكنها كانت لا تخطىء في عدّ الدراهم وتخفيها في مكان لا يعرفه إلا الله. في الغرفة كان ينام حوالي عشرة فتيان.

وجد غاندي شغلاً في طرابلس بفضل الليرة الملصوقة. كان السائق من قرية «مشتى حمود» القريبة، ولا بد أنه ذهب وأخبر الوالد عن مكان إقامة ابنه. في الأيام الأولى كان غاندي مرعوباً من أن يأتي والده ويقتله.

رشيدة، زوجة المعلم رشيد، هكذا كان يدعوها غاندي، طمأنته.

«ما تخاف، أنت عندي، إذا اجا بكسر له رجليه».

خاف غاندي، لكن الوالد لم يأتِ وغاندي لم يمت. بقي في الفرن أشهراً طويلة، أربع سنوات أو أكثر، وهناك تعلّم الحياة.

المعلم رشيد، الأسمر، الأشيب، الرفيع، كان يشبه المفتاح. هكذا كانت تقول زوجته أم جمال، التي كان غاندي يسميها الست رشيدة.

ألست رشيدة كانت كل شيء. هي التي تأمر وتنهي، وزوجها المفتاح لا يفعل شيئاً. يجلس أمام الفرن، والنرجيلة أمامه وينفخ في الهواء. ثم صار يهرب من الفرن إلى قهوة الزجاج في الميناء، حيث يبقى طول النهار وهو ينفخ ويقول «يا معين». كان كثير الكلام، لا يحكي إلا بالسياسة. يتكلم عن سلاطين بني عثمان كأنهم من أقربائه. «يا عيني على عبد الحميد، بس غدروه يا مرا». والمرأة تتأفّف وتقول له أن يهتم بأسعار الطحين. «طحين أي طحين، هيدا طحين، هيدا بلد، أنت ما بتفهمي»، ويذهب إلى مقهاه ويتعجّب من هذا «اللبنان الكبير» الذي صنعوه.

«قال كبير قال، الله يصغره، شو كبره، ما نحن ما بدنا، نحن شو بدنا».

هكذا طول النهار في المقهى، يجلس مع شلّة الرجال ينفخون النراجيل في الهواء، ويتكلمون عن هذه الأيام التي انقلبت، وينهون الجلسة بخناقات على لعب الداما، وحين يعود متعباً في الثالثة بعد الظهر

إلى الفرن، وتكون أم جمال ترتّب أمور العمل، وتعطي أوامرها بتحضير الطحين لعجنة الليل، يبادر زوجته بسؤالها عن أخبار السياسة، فتسكته بحركة من يدها، تسكب له صحناً من الطبيخ، يأكله في الفرن والعرق يتصبّب منه، ويذهب إلى بيته لينام. وأم جمال تأمر، وغاندي الذي لم يكن يدعى غاندي وقتها، بل كان يدعى «عبد»، يقف كالعبد بين يديها. يكون عبد قد انتهى من توزيع ربطات الخبز على البيوت ويشعر بالجوع والنعاس. تعطيه رغيفاً محشواً ببقايا طبيخ البارحة، ورغيفين للمرأة الطرشة، ويوميته نصف ليرة، وتقول له «الله معك يا ابني». ثم تعيد الحكاية عن ابنها جمال. «داير ما بحب الشغل، وأنت بتاكل الشغل أكل، أنت مثل ابني، أنت ملعون». تنظر إليه من فوق إلى تحت كأنها تريد أن تعرف كم جمع من البخشيش في البيوت التي وزّع عليها الخبز.

«والله ما في شي يا خالتي، اليوم طفرانين».

شعر عبد أنها ستهجم عليه لتنبش له جيوبه، لكنها لم تهجم. ابتسمت فظهرت أسنانها الصفراء المائلة إلى السواد، والفجوة الأمامية التي تركها خلعها لسنّين مسوّسين، وتقول له أنت «أخو شحطة». ومن يومها اقتنع غاندي أنه «أخو شحطة»، وإلا كيف عاش. لا أحد يستطيع أن يعيش في هذه البلاد إلا «أخو الشحطة».

أمسك كبريتته وشحط أحد أعوادها وصار يصفّر.

«صحن اللبنة بعشر قروش، وإلا ما منبيع».

قال لزبائن مطعمه الجالسين على مصطبة أمام الباب. كان يضع كأس العرق أمامه في بيته في النبعة، وحوله مجموعة من الشغيلة الأكراد

والحوارنة، الذين صاروا زبائن هذا المطعم الشعبي الذي فتحه غاندي على حساب كلب المستر دايفز، والزبائن يتكاثرون، والمصطبة تتحول إلى مطعم حقيقي، والطراريح تملأ الأرض.

«رزق الله على هيديك الأيام».

قال غاندي للقسيس أمين، الذي وقف أمامه كالصنم، ووضع حذاءه الأسود على لسان الصندوق الخشبي.

«امسح يا ابني الله يهديك، انت ابن حلال، ليش ما بتجي على الكنيسة».

«أعوذ بالله يا قسيس، أنا مؤمن بالله تعالى»، يجاوب غاندي.

«شو الكنيسة مش الله، انت ما بتعرف القرآن، ولتجدنّ أشدّ الناس مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، تعا وتفرج، شو رح تخسر».

ولأن غاندي كان «أخو شحطة»، فقد قرر أن يأتي ويتفرج.

لم يكن القسيس أمين راعياً للكنيسة الانجيلية المشيخيَّة الرسمية الكائنة في نزلة زقاق البلاط، بل كان راعياً لكنيسة صغيرة تقع في شارع المكحول، هي كناية عن بيت جرى تحويله إلى كنيسة. وحكاية القسيس أمين مع كنيسته معقّدة. فهو كان قسيساً حقيقياً. صار قسيساً بعد أن درس التاريخ واللاهوت في الجامعة الأميركية، وعيّنه السينودس الإنجيلي راعياً متجوّلاً. كان أمين شاباً متحمساً، فهم مهمّته على أنها التبشير بالمسيح، وكان يرى نفسه في ثياب الرسل، يجول لبنان بأسره ويموت كالشهداء الأوائل. فأمين العرموني القادم من صيدا إلى بيروت، اكتشف أن العالم صار ملكه، وأنه ينتمي إلى المستقبل الذي تصنعه

المعرفة والإيمان. هكذا علّمه المبشرون الأميركيون بلطفهم وحكمتهم. وهو القادم إلى الكنيسة من قعر الفقر. كان يؤمن أن الخلاص بالمسيح هو خلاص العالم كله، وأن أميركا هي نموذج هذا العالم الجديد الذي يخلّصه المسيح. كان في الثانية عشرة من عمره عندما ضربت المجاعة صيدا خلال الحرب الكونية الأولى. لا يذكر القسيس أمين من تلك السنوات الصعبة سوى المجاعة. كان يذهب مع والده الكندرجي لشراء الخبز. يمسك بيد والده جيداً، لأنه كان يخاف أن يتركه والده السريع الخطى للمجاعة، ويتخلص من فمه. وعلى جوانب طرقات صيدا كان يرى الرجال والنساء المنتفخي البطون، وهم يصرخون بالجوع. يومها تعلم أن لا يعطي أحداً، لم يكن بخيلاً، لكنه كان لا يعطي، تعلم أنك لا تستطيع اقتسام لقمتك مع أحد وإلا تموت. وحين صار القسيس أمين راعياً في منطقة راس بيروت، بعد الانشقاق الصغير الذي حصل في كنيسة بيروت، ظل يشعر أن اللقمة تكاد تهرب منه، وأنه لا يستطيع اقتسامها مع أحد. أوجيني زوجته، ابنة القسيس نبيل الخوري، كانت لا تفهم بخله. فهو يقنّن كل شيء في البيت ما عدا قناني الويسكي. أما ثياب الأولاد فكانت معركة يومية. يجول في المناطق، ويأتي في بداية الاسبوع إلى بيروت، كي يقيم مع زوجته حوالي يومين.

«أنا كالصياد»، كان يقول لزوجته.

«أنا صياد النفوس، أذهب إلى الكنائس المغلقة وأفتحها، وأشفي المرضى، وأقيم المقعدين، وأبشّر».

يتحمّم ويجلس إلى قنينة الويسكي، ولا يقوم حتى ينهيها. والزوجة لا تفهم كيف يسكر القسيس، فهي ابنة قسيس، وعاشت في

أجواء الكنيسة، ولم ترَ مشهد القسيس سكران إلا في هذا البيت .لكنها لم تكن تقول شيئاً. كانت ترى في هذا الزوج شبح والده. هي زارت والده مرة واحدة في بيتهم في الأشرفية، قبل أن يموت، وفهمت أنهم ينتمون إلى بيئة أخرى، وعالمٍ مختلف. كان أبو أمين، طنوس العرموني، رجلاً طويلاً، يعرج قليلاً وأحول. كان يعيش في منزل ريفي في الأشرفية، محاط بأشجار الزنزلخت، وحديقة مليئة بأشجار الأكدينيا واللوز، وشجرة ليمون واحدة، ونخلة طويلة. كان الكهل الذي لا أقرباء له، لأن أولاد عمه الذين يعيشون في قرية عرمون، في منطقة عاليه القريبة من بيروت، قرروا مقاطعته لأنه صار بروتستانتياً. وهو كان مجبراً. قال لزوجته إنه لو لم يصبح بروتستانتياً لمات من الجوع خلال الحرب العالمية الأولى. لكن الزوجة التي وافقت على كل شيء، وصارت تذهب إلى تلك الكنيسة التي لا تشبه الكنائس، لأنها خالية من الأيقونات، وتغمض عينيها على تلك الصورة التي تضحكها، وتصلي كما يصلون. كانت في البيت، وفي ركن من غرفة نومها، تحتفظ بصندوق مليء بالأيقونات البيزنطية، وأمام الأيقونات هناك كوب من الزيت الذي يشتعل فتيله ليل نهار. وأصرّت على تعميد أولادها في بئر مار الياس بطينا في بيروت. حملت الأولاد من صيدا، واحداً واحداً، وأتت بهم إلى بيروت حيث غطّستهم في البئر، التي كانت تؤمن أنها تشفي من الأمراض وتطهّر الأجساد والنفوس. كانت أم أمين تكره صيدا، ولا تفهم لماذا صاروا هكذا، لكنها كانت مطيعة لزوجها. حين قال لها زوجها إنه غيّر دينه، قالت طيب، قال ان عليها أن تتعلم الدين الجديد، قالت لا، الأديان مثل بعضها، متل ما بتريد بصير، وصار.

تغيّر الزوج، لم يتغيّر فيه سوى كلامه، قالت أم أمين لحماتها

نصف الخرفة، إنه صار يحكي العربية بلهجة مفصحنة مثل القسيس البروتستانتي، الفلسطيني، الذي كان راعياً لكنيسة صيدا.

«لولا شغلي بمدرسة الأميركان لما تعلم الأولاد، ولولا هالطائفة الجديدة لمتنا جوعاً مثل الكلاب». كانت أم أمين تعتقد أن الأديان متشابهة، وتعودت على هذا الدين الجديد، دون أن تتوقف عن رسم إشارة الصليب.

وفي آخر أيام زوجها، عندما ذهب أمين إلى الجامعة الأميركية ليدرس اللاهوت، وتوظّف نقولا، ابنها الثاني، في أحد فنادق طبريا، عادت أم أمين إلى بيروت، وتركت العائلة صيدا. وفي الأشرفية، في البيت الذي ورثته عن أبيها، رجعت أم أمين إلى علاقاتها القديمة، عادت إلى عائلتها وجيرانها. وصار أبو أمين العرموني يتدهور بسرعة إلى الخرف. كان يضيع في شوارع الأشرفية، وهو يعتقد أنها صيدا. يذهب إلى شاطىء «الدورة» ويجلس طويلاً، وهو يعتقد أنه أمام ميناء صيدا. المرأة تخاف على زوجها من أن يضيع في شوارع بيروت، وأمين لا يهتم.

وعندما أصبح أمين قسيساً، امتلأ وجه أمه بالدموع، بينما كان الوالد الذي ألبسوه الكرافات، وأجبروه على خلع الطربوش في الكنيسة شارداً. صار أمين قسيساً وتزوّج في اليوم نفسه. وأم أمين باركت.

«البنت منيحة والله يوفقك يا ابني. بس قل لها تحكي معنا عربي».

وأوجيني، ابنة القسيس نبيل الخوري، لم تكن توافق على زيارة الأهل في الأشرفية.

«أمك تتكلم كثيراً»، قالت له.

وأم أمين هي التي روت لأوجيني حكاية الجدة أم طانيوس.

«ليش خبرتيها يا أمّي».

«كان بدّي سلّيها، بعدين لازم تعرف نحن مين»، قالت.

«هي بتعرف، بس ما إله لزوم».

أم أمين أخبرت أوجيني حكاية أم طانيوس وكيف صارت وليّة عند المسلمين.

وكيف حاول أبو أمين أن يسكت أمّه، فجاء أبو حسن الهواري وركع عند قدميها وبدأ بتقبيلها، ولم تعد الوفود تتوقّف، والكندرجي لا يعرف ماذا يستطيع أن يفعل. وعندما ماتت المرأة أصرّ الهواري على دفنها في مقابر المسلمين، وبعد نقاش وصراخ وصل الرجلان إلى تسوية. قاموا هم بغسلها وتكفينها، ثم أخذت إلى بيروت حيث دفنت في مقابر العائلة في كنيسة «مار متر».

كانت أم طانيوس في الثمانين من عمرها، تعيش مع ابنها وعائلته في بيتهم الجديد في صيدا. كان البيت أرضياً، مؤلفاً من أربع غرف وباحة. كانت العجوز تسكن في غرفة على طرف الباحة، وتعيش مستقلّة، لا تأكل سوى الخبز والماء، ولا تنام. تدخل إلى الحمّام الموجود على طرف باحة البيت عدة مرات. كان الليل إيقاعاً لخطواتها التي تطقطق على بلاط الباحة. كأنها لا تنام.

أم طانيوس لم تكن تحبّ صيدا، وتريد العودة إلى بيروت، وتضحك على ابنها وهو يجبر أولاده الصغار على إغماض عيونهم والصلاة قبل تناول الطعام. تجلس وحيدة أمام باب غرفتها، حتى في عزّ أيام الشتاء، وتحرّك فكّها الأسفل بشكل دائم. بعد انتهاء الحرب

العالمية الأولى، وقعت وكسرت رجلها، ولم تعد تستطيع النهوض من الفراش. وبدأت تنسى.

«إنه الخرف»، قال الحكيم لابنها.

«مش ممكن»، قال أبو أمين، «بعيلتنا ما حدن بيخرف».

«النشاف أكل راسها، وما فينا نعمل شي».

بقيت في سريرها سنوات، وأم أمين تخدمها، والمرأة الكهلة تشتم وتئنّ وتغيب عن الوعي.

وحدث ذلك الأمر الغريب.

كانت الساعة حوالي العاشرة صباحاً، عندما بدأت المرأة المفلوجة تصرخ بصوت عال:

«يا حبيبي يا محمد».

ركضت أم أمين، لتجد المرأة جالسة في سريرها وهي تحكي:

«شاب أسمر طويل، يا حبيبي يا محمد، تركوني بدّي قوم. شاب، شواربه لفوق، حامل عصا بايده، وقف حدّي ونكزني، وقال لي يا أم طانيوس قومي مشي، إجا الفرج يا حبيبتي، إسّه بتقومي، نكزني بالعصا على جبيني، بعدين على بطني، حطّ العصا وقال لي قومي. شاب، أسمر، طويل، يا حبيبي يا محمد، تركوني بدّي قوم، تركوني، ليش رابطيني على الفرشة، هو قال لي، يا حبيبي».

صرخت أم أمين بها كي تسكت. لكن المرأة تابعت، وبدأ صوتها ينوص، وهي غارقة في خرائها وتحاول النهوض. هدأتها، مسحت لها وجهها بفوطة مبلّلة، وبدأت تغسلها، والكهلة لا تهدأ، تدفش

وتصرخ: «يا حبيبي، أسمر وطويل، اسّه بتقومي، تركوني بدي قوم يا حبيبي يا محمد».

وسمعت أم أمين دعسات في الباحة، خرجت من الغرفة وأغلقت الباب خلفها، لتجد أبو حسن الهواري ومعه مجموعة من الرجال، يقفون وسط الباحة.

«شو يا جارة»، سأل الهواري.

«ما في شي، المرا خرفانة وعم بتصرخ»، قالت أم أمين.

«اختشي يا وليّة، غطّي راسك وتركينا نفوت عند الماما».

«مين الماما»؟ سألت.

«أم طانيوس، أم طانيوس شافت النبي اللهم صلّي عليه، ونحنا سمعنا كل الحكي».

«الله يخليك يا جار تركني بهمّي».

«يا بتفتحي الباب، يا منخلعه».

دخلت أم أمين إلى الغرفة. تركت الهواري والرجال في الخارج ودخلت. أغلقت الباب وراءها وصارت ترجو المرأة الكهلة أن تسكت، لكنها كانت تزيد من صراخها. أكملت أم أمين تنظيفها وألبستها قميص نوم، وفتحت باب الغرفة وخرجت.

عندما رأتهم المرأة الكهلة، بدأت تصرخ بأعلى صوتها.

«يا حبيبي يا محمد، أسمر، طويل، شواربه لفوق، معه عصا، نكزني وقال لي إسّه بتقومي»، وحاولت أن تنهض. أمسك بها الهواري وأبو لطفي وأوقفاها، وحاولت أن تمشي.

قال الهواري لابنها إنها مشت. «أنا شفتها، وقفتها وتركتها ومشيت. أعجوبة يا جار، يا محمد، الله أكبر».

وصارت الغرفة مزاراً، كانت الكهلة تتدهور صحياً، وتدخل في ما يشبه الغيبوبة. وزوّارها لا ينقطعون. نساء، أطفال، رجال. وأم أمين لا تتوقّف عن إعداد القهوة.

«صارت وليّة، إنها من أولياء الله الصالحين»، قال الشيخ العيوطي بعد أن خرج من غرفتها وقبّل يدها. «بيتكم مبارك»، قال لأبو أمين. «يا ابني هذا نور الإسلام، نور الحبيب».

وأبو أمين يهزّ رأسه ولا يعرف كيف يتخلّص من هذه العلقة التي أدخلته فيها أمه. ولم تنحلّ المشكلة إلا بعد موت المرأة. المرأة ماتت فجأة، نهضوا في الصباح، فوجدوها باردة وغارقة في الموت. وبعد نقاش طويل حسم الشيخ العيوطي المسألة، «نحن نغسلها وأنتم تدفنوها»، وهكذا صار. غسلوها وكفّنوها وسط الأناشيد والتهاليل، وحملها أبو أمين إلى بيروت، وهناك دفنها، ودفن معها الحكاية التي حين سمعتها أوجيني من والدة القسيس أمين شعرت بالتقزّز. فهي لا تحب هذا النوع من الحياة.

قالت لزوجها إنها تشعر بأنه مختلف عن جميع أفراد عائلته.

قالت لزوجها إنها تشعر بذلك، لكنه وافق معها، وافق وعاش معها كل هذه السنوات على الوتيرة نفسها. هي كل شيء، وهو الراعي المتجوّل لا شيء. عندما ينفضّ الناس من حوله ينسى كيف يحكي، وتصبح هي الآمرة الناهية؛ متعته الوحيدة هي كؤوس الويسكي التي يشربها في مساءات البيت القليلة، أما حياته فهي غبار وتنقل بين

مرجعيون وصيدا وصور وكل مكان. يعود إلى هذا البيت في رأس بيروت، الذي أورثه إياه عمّه والد زوجته، ليكتشف أنه رب عائلة لا يعرف شيئاً عنها. الأولاد يتكلمون الانكليزية، والزوجة لا تطبخ إلا طعاماً لا يستطيع ابتلاعه. لم يكن يعترض، كان عندما يشتاق لأكلة حقيقية يهرب إلى بيت أمه، حيث يأكل كما يشاء، وينام بعد الظهر في سريره العتيق.

كان القسيس أمين يتعجّب من هذه الطاعة التي تظهرها زوجته أمام أصدقائه، وخاصة أساتذة الجامعة الاميركية، التي ربطته ببعضهم علاقة خاصة، كانت أمامهم كالنعجة، والمستر دايفيز يحسده على الطاعة ويقول إن سحر الشرق هو في نسائه. ربما بسبب من هذا السحر، طلب المستر دايفيز من صديقه القسيس أن يعظ صباح كل أربعاء في قاعة الكنيسة في الجامعة. مما سمح له بتحسين مدخوله الماديّ قليلاً.

الآن يكتشف القسيس أمين أنه وحيد. الأولاد سافروا إلى أميركا، والست أوجيني قالت إنها لا تتحمل الحرب، فلحقت بأولادها، وهو هنا. «الراعي لا يترك رعيته»، قال لزوجته. لكن أية رعية؟ لم يعد هناك رعية، إنه راعي الكنيسة الفارغة. حتى صداقاته فرطت، وصديقته الوحيدة مدام ليليان صباغة لا علاقة لها بالكنيسة. «كانت صداقة بريئة»، قال لأليس التي ضحكت وربتت على كتفه.

«بسيطة يا مولانا، بسيطة»، قالت له.

وفي ذلك اليوم الرهيب لم تكن الأمور بسيطة. وقفت ليليان صباغة أمام كل الناس كالمجنونة وفضحت العلاقة. يومها لم يجرؤ

القسيس على الخروج من بيته، مشى خلف نعش الخادمة فيتسكي، لكنه اضطر إلى عدم دخول الكنيسة، لأن عيون الناس كانت كالدبابيس التي تنخز له ظهره.

لا يعرف القسيس أمين لماذا قالت ليليان ذلك. وقفت داخل غرفة فيتسكي وبدأت تحكي كالمجانين. عندما لمحته بدأت تحكي، ولم تتوقف إلا عندما تدخّل الخوري يوحنا. لماذا فعلت ذلك، هل لأنها تكرهه، أم لأنها مجنونة أم لأنها لم تعد تحتمل وحكت كل شيء.

«لا هيدا كذب».

قال لأليس التي لم تصدّقه. وكان القسيس أمين وحيداً وحزيناً. لم يعد هناك أحد، ولولا أليس التي تهتم به بين وقت وآخر، لتبهدل وصار كالشحاذين.

ولكن لماذا حكت ما حكته، لماذا تمسخرت عليه وحوّلته إلى نكتة؟

هل لأنه طلب منها أن تطير؟ القسيس أمين لم يكن يريد أن ينام معها، وحتى لو أراد فهو لم يعد يستطيع. منذ غادرته أوجيني، وهو لا يستطيع.

«الخيانة تفترض وجود الزوجة. عندما تختفي الزوجة أو تسافر، فإن الخيانة تصبح بلا معنى».

نظرت إليه أليس بعطف، فهي سمعت هذا النوع من الكلام آلاف المرات. لكنها لم تفهم كيف كان يريد أن يطيّرها.

«صحيح يا قسيس، صحيح كان بدّك تطيّرها».

دخل القسيس أمين في سبات عميق، وضحك، ولم يجاوب.

«كيف يعني، كيف كان فكرك أنها تطير، كان بـدك تكبها من الشباك»؟

والقسيس أمين لم يفكر بأن يكبّ ليليان لا من الشباك ولا من الباب. مرة واحدة قال لأليس إنه سيروي لها الحقيقة، لكن شرط أن لا تخبر أحداً.

«بير غميق يا حبيبي».

قـال إنه ذهب إلى بيتها كالعادة، قـال إنه بدأ بزيارتها منذ فترة، ثم تحولت زياراته إلى ما يشبه العادة. ذهب إلى بيتها وكانت «فيتسكي» الخادمة تستعد للمغادرة، والابنة المعتوهة تنام في غـرفتها. جلس في الصالون وشرب كأس بيـرة معها، فهي كـانت لا تسمح لـه بشرب الويسكي، لأنها لا تحب الرائحة. جلسا وتحدثا. كانت تطلب منه أن يعيد عليها حكاية جدته أم طانيوس مع النبي محمد، أخبرها الحكاية وغـرقت في الضحك. اقـتربت منهـا، قـال، كنت أريـد فقط أن أضـع رأسي عـلى صـدرهـا، أنـا أحب هـذا، مـع أوجيني كنت أضـع رأسي عـلى صدرهـا وأقول لهـا يا مـاما، فتجـاوبني يا بـابا، وتضـع يدهـا على شعري، ونتفرج على التلفزيون. كنت أريد أوجيني فوضعت رأسي على صدر ليليان، وبدلاً من أن تقول لي يا بابا، وتضع يدها على شعري، نهضت، أمسكتني من يـدي وأخذتني إلى غـرفتها، خلعت قميصهـا وصدريتها، فرأيت ثديين كبيرين. ولم أفعل شيئاً. اقتربت وأمسكتها من يدها وأجلستها على طرف السرير، وجلست إلى جانبها، ووضعت رأسي على صدرها. لكنها وقفت من جديد. ركضت وأطفـأت ضوء الغرفة، ووقفت أمام النافذة، وقفت أمام حافة النافذة كأنها ستقع، ظهرها منحن إلى الأمام، ويداها على حافة النافذة، وشعرها يتهـدّل

فوق ثدييها. خفت أن تقع وتموت. ركضت إليها. كانت الغرفة مظلمة، فاصطدمت بالكرسي وسقطت على الأرض. بقيت أمام النافذة لا تتحرك. نهضت وأمسكت بها من خصرها. وحاولت إعادتها إلى السرير، لكنها رفضت. أنا لم أقل لها طيري، هي قالت انها تريد أن تطير. لم أقل كل ما يقال عني. فقط وضعت رأسي على صدرها وكدت أبكي. لكنها مجنونة، هي المجنونة، صارت كل مرة تخلع بلوزتها وصدريتها وتقف قرب النافذة. حكاية الطيران، وأنني أدفش المرأة وأطلب منها أن تطير ليست صحيحة.

غير أن الحكاية التي روتها الست ليليان صباغة كانت مختلفة.

قالت إن القسيس حاول اغتصابها. ذهبت إلى الخوري يوحنا، وركعت أمام كرسي الاعتراف، وحكت ما يحلو لها، الخوري يوحنا لم يقل لها شيئاً، كان يعلم أنها امرأة غير متزنة عقلياً، وأنها تتكلم بشكل غير منطقي، وأنه عيب. هل من المعقول أن يحاول القسيس المسكين أن يدفشها من النافذة ويغتصبها. لقد فقدت المرأة عقلها منذ وفاة خادمتها البيضاء.

كان غاندي الصغير يرى في تلك الخادمة صورة للملاك الأبيض. تمرّ به برأسها المرفوع وظهرها الذي لا ينحني، وتطلب منه أن يأتي لأخذ السكربينات. لم تحمل له سكربينة في حياتها، تقف معه دون أن تنظر إلى تحت حيث يكون جالساً أمام صندوقه، وأمامه صفّ الأحذية المصفوف على الرصيف. كان غاندي يترك كل شيء، ويذهب ليجلب سكربينات الست ليليان وخادمتها. كانت سكربينات الخادمة أكثر نظافة وأناقة من سكربينات الست.

لم يخطر ببال غاندي أن هذه المرأة كانت أميرة روسية، وأنها اشتغلت عند آل الصباغة بعد أن باعت كل المصاغ الذي جلبته معها من روسيا، كانت في الخامسة عشرة، وعبرت قارات وبلاداً لتجد نفسها في ميناء بيروت بدلاً من ميناء الاسكندرية. حاولت أن تشتغل، اشتغلت، ودرّست الفرنسية لبنات العائلات البيروتية، لكنها كانت كمن ينتظر شيئاً بشكل دائم. وحده الخوري يوحنا المزرعاني كان يعرف قصتها الحقيقية، وكان خلال القداس يصرّ على أن يبدأ المناولة بها. كانت تقف في أول الصف، بثوبها الأبيض وشالها البرتقالي، والكاهن ينحني لها هو وكأسه.

مدام صباغة هي التي أعلنت السرّ في الحي. وكان ذلك يوم وجدت «فيتسكي» ميتة في غرفتها الصغيرة. هناك ولولت مدام صباغة وقالت «الأميرة بنت الأمير». جاء أهل الحيّ راكضين. أبو سعيد المنلا، اسبيرو أبو طاقية، المعلم أحمد، حصن، الدكتور عاطف، أليس، الزيلع، ونساء. كلهم كانوا أمام البيت. وعندما سمعت ليليان صباغة إحدى النساء تسأل «شوبها الصانعة»، صرخت «أنتم صنّاع، هيدي أميرة».

كانت الأميرة البيضاء ميتة في الداخل تستلقي على سريرها بقميص النوم الأبيض، كأنها كانت تعرف أنها ستموت. عيناها مغمضتان ويداها معقودتان فوق اللحاف، ورائحة تعفّن خفيفة، تخرج من الغرفة.

الخوري يوحنا أمر الجميع بالخروج، كلهم خرجوا ما عدا مدام صباغة. وتم إحضار الطبيب الذي أعلن أن الوفاة تمّت في الليل، بسبب نوبة قلبية.

اتخذ الخوري يوحنا إجراءات الدفن بسرعة، لكن مدام صباغة أصرّت على حضور المطران، وبدأت تصرخ في وجه الخوري. الجميع كانوا في البيت، الذي امتلأ فجأة بالراهبات. لا يعرف غاندي من أين جاءت الراهبات وكيف دخلن غرفة الأميرة. الجميع في المدخل، الذي حُوّل إلى صالون، والخوري يقول إن الدنيا حرب ولا يمكن للمطران أن يأتي. ومدام صباغة تصرخ وتولول. هنا تدخّل القسيس أمين، وحصلت الفضيحة. هجمت عليه، غاندي يقول إنها هجمت عليه وكادت تقتله، وصرخت إنه كان يريد قتلها وأنه حاول اغتصابها ورميها من النافذة. يومها يقول غاندي، إن الخوري يوحنا أوقف الخناقة وأخرج القسيس من الباب، ووعد ليليان بأنه سيتصل بالمطران.

في اليوم الثاني قطع مطران بيروت المعابر وجاء إلى الدفن.

أليس أخبرتني أن الخوري يوحنا المزرعاني، روى لها كل الحكاية.

«شي لا يصدق، أنت بتعرفي، لا يمكن ما بتعرفي، الايام بتقلب، وهيدي الروسية هي القلبة. الحياة ما قلبت فيها، هي قلبت، بس ما بعرف».

قالت أليس إن صداقتها مع الخوري يوحنا المزرعاني، بدأت لأنها كانت تهتم بالقسيس أمين في أيامه الأخيرة. وأنها بعد أن أوصلت القسيس أمين إلى مأوى العجزة في الأشرفية، صار الخوري يوحنا صديقها. تزوره عصراً، حيث يجلس أمام مصطبة كنيسة «السيدة». ويشرب الليموناضة، ويحكي لها عن مريم المجدلية، وهي تحكي له عن أيامها.

سألها مرة لماذا لا تأتي إلى الكنيسة يوم الأحد.

«كيف بدّي إجي يا أبونا، ما أنا مسلمة».

«مسلمة، مش معقول، شكلك متل تلاميذ الراهبات».

«ما أنا تلميذة الكرخانة، كله متل بعضه يا أبونا».

والكاهن صار مقتنعاً أن كله مثل بعضه. ها هو يعيش وحيداً ومنعزلاً. الشيب يغطي لحيته، وشعره الطويل الملفوف مثل كعكة خلف رقبته بدأ يتساقط، والأيام تمر، والحرب أخذت كل الناس. لم يبق أحد. كلهم رحلوا، والحياة لم يعد لها سوى معنى انتظار الموت. والخوري يوحنا، كاهن كنيسة رأس بيروت الأرثوذكسية يشعر اليوم أن الأشياء مثل بعضها، وأنه لوبقي في «حوش ملعب السلام»، وتحول إلى لاعب فوتبول لكان كما هو اليوم.

كان في طفولته يخجل من «الحوش» هو ليس مزرعانياً، عائلة المزرعاني ألصقها به المطران أثناسيوس رحمه الله، عندما كان خرفاناً. فالخوري يوحنا، واسمه الحقيقي أنور نصري، هو من مواليد حوش ملعب السلام. هناك ولد مع مئات الأطفال في أكواخ حجرية، بنيت تحت ملعب كرة القدم في الأشرفية كي تؤوي الحوارنة المهجرين، الذين تركوا مناطق «السويداء» في العشرينات، خلال الثورة السورية الكبرى. هرب الناس إلى بيروت. النساء بألبستهن السوداء الطويلة، والحطة السوداء المعقودة فوق الرؤوس، والوشم الذي يغطي الأيدي والذقون، وخلفهن الأولاد والرجال. في بيروت أشتغل الرجال عمال بناء، وعملت النساء خادمات في البيوت، وعاش الجميع في الحوش التابع لوقف مطرانية بيروت. هنا، ولد أنور نصري، وتلقى تعليمه في

مدرسة مجانية. أمه أخذته إلى المطرانية لأن صوته كان جميلاً. عاش في ذلك البناء الفخم الواقع في «حي السراسقة» في بيروت، وكان يأكل كما يأكل الأمراء، ويدرس اللاهوت ويحمل المبخرة. إلى أن أصبح كاهناً.

«أنا ما عندي حظ صير مطران، يمكن لأنه كانوا يقولوا ابن الصانعة، شو الصانعة مش بشر، يا عيب الشوم، بس هيك أفضل، حملي قليل يا أليس، هيك بوقف قدامه وبردّ له الوزنات مضاعفة، وما بتبهدل بهيديك الدنيا».

ومن الأشرفية إلى رأس بيروت. والخوري يوحنا، يعيش هنا، منذ ثلاثين سنة، رأى كل شيء، رأى المدينة وهي تتحول إلى برج بابل. رأى الناس يتكلمون جميع اللغات، رأى الوجوه وهي تتحول إلى آثار للزمن. رأى، وهو الآن يجلس على المصطبة، كوب الليموناضة في يده، يشعر بوحدة قاتلة، ويستمع إلى ذكريات أليس وحكايات جيرانه، ويشتاق إلى امرأة. امرأة كيفما كانت. صار أبونا يوحنا يخلط النساء في رأسه، يمزج الأسماء والأشكال، ويحتار مع من وكيف يبدأ. يراهن أمامه كظلال تأتي وتذهب، ولا يستطيع القبض عليها، كلّ لذّات الدنيا ذهبت. الكولسترول والضغط، لم يعد هناك إلا لذة واحدة، الكلام. الحكي هو اللّذة الوحيدة التي لا يشبع منها الخوري يوحنا المزرعاني. يجلس أمام مصطبة كنيسته كأنه صياد ينتظر فريسته التي ستعلق في شباك كلامه.

هكذا روى للجميع حكاية «فيتسكي» المسكينة. وفي كل مرة كان يزيد على الحكاية قليلاً من التفاصيل.

حين روى لأبو سعيد زاد حكاية غرام «فيتسكي» به. وكيف أن

ثوبه الكهنوتي منعه من الوقوع في الخطيئة. طبعاً كان الخوري يخترع، «ففيتسكي» لم تلتقِ به في المطرانية، فهي عندما زارت المطرانية لآخر مرة، وحصلت الفضيحة مع المطران اثناسيوس، وكانت في العشرين من عمرها، كان الخوري يوحنا، ما يزال ولداً يلعب كرة القدم في ملعب السلام. لكنه روى أنها أحبته، أنه ما يزال إلى اليوم يكنّ لها عاطفة خاصة، لذلك أصرّ على حضور المطران للجنازة، مع أن أبو سعيد رآه وهو يزعق في وجه ليليان، ويقول لها إن حضور المطران مستحيل.

الخوري يوحنا، كان مقتنعاً بما يرويه. كلنا هكذا، نقتنع بما نروي. وأنا عندما أحاول أن أكتب ما رووه لي، أكتشف أن أليس كانت على حق.

«الذكريات ذلّ يا ابني. وقت يللي واحد بيقعد، وما بعود عنده شي إلا الذكريات، يعني خلص، خلص الحمار، وزيتاته على آخر».

«فيتسكي» كانت خائفة عندما قادها سمعان فياض إلى منزل مدام ليليان صباغة. كانت ليليان تعيش مع ابنتها ثريا وزوجها جورج. اتفقت «فيتسكي» مع ليليان، على أن تأتي كل يوم لمساعدتها في شغل المنزل. رفضت «فيتسكي» أن تنام عندهم. وساعدها الخواجة جورج على استئجار غرفة في آخر شارع «المكحول»، هي الغرفة نفسها التي ماتت فيها الأميرة البيضاء.

لم تكن «فيتسكي» خادمة بالمعنى الحقيقي. إذ كان في منزل مدام صباغة خادمة كهلة تدعى وديعة. كانت «فيتسكي» مدبّرة المنزل. لا تتكلم سوى الفرنسية، تقرّر أنواع الطعام التي يجب طهيها وتأمر

وتنهي ، وتحتقر هذه البرجوازية اللبنانية التي لا تعرف من الحضارة غير القشور.

وبعد وفاة الخواجة جورج بسرطان الدم ، وإدخال الابنة إلى مدرسة للمعاقين في قرية «بيت مري» ، نشأت صداقة عميقة بين السيدة والخادمة. السيدة تعيش على أمجاد عائلة الصباغة التي اندثرت، والخادمة ترفض أن تروي شيئاً عن روسيا والقياصرة. كانت الخادمة هي السيدة، تتصرف كأن البيت ملكها، وكأن مدام ليليان صباغة تعيش عندها. الشيء الأساسي الذي كان يزعج «فيتسكي» هو شعورها بأن قدومها إلى بيروت تمّ رغماً عنها. فهي هربت مع ابن عمها، «فيليب» الضابط في الجيش الأبيض إلى اسطمبول، التي تصر «فيتسكي» على تسميتها «القسطنطينية»، بعد أن تم احتلال قصر العائلة في «كييف». هربت «فيتسكي» مع ابن عمها، دون أن تعرف شيئاً عن المصير الحقيقي لبقية أفراد العائلة، أحد الروس البيض المهاجرين، الذين كانت تمتلىء بهم إسطمبول، قال لها إن الجميع قتلوا. ومن اسطمبول كان من المقرر أن يهاجرا إلى الاسكندرية. ابن عمها أخذ هذا القرار، وهي وافقت. وكانت «فيتسكي» تعتقد أنهما سيتزوجان في الاسكندرية ، ابن العم اختفى ، تركها في الفندق الصغير في شارع لا تعرف اسمه. وراح ولم يعد، انتظرته عشرة أيام، ثم ركبت الباخرة التي أوصلتها إلى بيروت بدلاً من الاسكندرية.

في بيروت لم تجد مكاناً تذهب إليه سوى المطرانية. هناك وجدت نفسها وسط مجموعة من المهاجرين، الذين دُبِّرت لهم على عجل أماكن لإيوائهم. «فيتسكي» عاشت هناك في غرفة صغيرة بلا نوافذ قرب طلعة «العكاوي». وبدأت تشتغل كمدرسة للغة الفرنسية في البيوت.

قالت لمدام ليليان، إنها تفضل أن تشتغل مدرّسة.

ابتسمت مدام صباغة بخبث، لم تقل إن الابنة بلهاء، بل قالت إنها في مدرسة داخلية، ويمكن «لفيتسكي» أن تدرسها في الصيف.

وصارت «فيتسكي» خادمة. وكان ذلك بفضل سمعان فياض، الذي أنقذها من ذلك الوضع الغريب، الذي وجدت نفسها فيه، عندما حاول المطران إثناسيوس أن ينام معها.

كان المطران يرى في هذه الفتاة البيضاء، ملامح الملوك.

«تشبهين القياصرة»، قال لها.

وهي كانت تنفي دائماً أن لها أية صلة قرابة بآل رومانوف. قالت إنها تنحدر من النبلاء، وأن خطيبها كان ضابطاً في الجيش الملكي.

المطران رفض أن يصدق، «أنت متواضعة»، قال لها.

المطران أحب هذه الفتاة، وكان يأخذها معه لزيارة أغنى العائلات البيروتية، حيث يوصي بأن تعمل كمدرّسة للبنات.

وكل مساء، يستدعيها المطران إلى صلاة الغروب. كان المطران يقيم صلاته كل مساء في الرابعة والنصف، في الكنيسة الصغيرة الموجودة في دار المطرانية. في الرابعة والربع تجد سمعان فياض في انتظارها بباب غرفتها. يأخذها إلى المطرانية مشياً. وهناك كانت تشارك في الصلاة بلغة لا تفهمها. مرة واحدة قالت هي صلاة زكريا. قالتها بالفرنسية وبصوت مرتعش. «الآن أطلق عبدك أيها السيد حسب قولك بسلام». وعندما وصلت إلى كلمة سلام، حين يطلب زكريا من الله أن يميته، توقّفت عن التلاوة وغرق صوتها في النشيج، وكرجت دموعها، وأصيب الشمامسة الذين يحضرون الصلاة بالذهول والحزن.

يومها استبقاها «سيدنا» إلى العشاء. وبعد العشاء أخذها إلى غرفة المكتبة، وهناك حاول أن ينام معها. لم تقل «فيتسكي» شيئاً، فهي لا تعرف عادات العرب، ولم يخطر في بالها أن يحاول هذا الكهل السبعيني ما لم يحاوله خطيبها الضابط الشاب.

شدها إليه، وقبّلها في جبينها. كانت رائحة الخشب العتيق، التي تشبه رائحة الأيقونات، تفحّ من غرفة المكتبة. وكان سيدنا إثناسيوس بلحيته البيضاء، وقامته القصيرة وعنقه الذي يهتز يميناً وشمالاً، يفوح برائحة تشبه رائحة الخشب. عندما قبّلها في جبينها، أخذتها رائحة الخشب، وكأنها استسلمت للرجل. فدفعها صوب الحائط. وقفت وهي لا تفهم ماذا يجري، وهجم عليها. هكذا دون مقدمات بدأ يقبلها في وجهها، وبدأت تصرخ، حاول وضع يده على فمها، رفعت يديها إلى الأعلى كي تردّه عنها، ثم ركضت، لم تجد الباب، كانت العتمة الخفيفة تحجب الرؤية عن عينيها. ركضت وسقطت أرضاً، فرأته بجبته السوداء فوقها، يحاول أن يثبتها بالأرض، وصوت لهاثه يطنّ في أذنيها. إنسحبت وهي تزحف على كوعيها. وقفت، وجدت الباب أمامها، فتحته وركضت إلى الخارج.

في الباحة اكتشفت الدم.

كان الدم يغطي أسفل فستانها الزيتي. إنحنت والحزن يكاد يقتلها، لتكتشف جرحاً عميقاً في ركبتها اليمنى. وسمعان فياض يعطيها ذراعه دون أن يتكلم. أمسكت بذراع الرجل وعادت إلى غرفتها.

كانت «فيتسكي» عندما تحزن، ويستبدّ بها قلق انتظار الخطيب

الذي لم يعد، وتأخذها الذكريات إلى حافة الندم، تكشف عن ركبتها كي ترى ليليان صباغة آثار الجرح الذي لا ينمحي، وتقول إنها لا تريد أن تدفن إلا في «كييف» في «روسيا المقدسة».

ومدام صباغة تطمئنها أنها حجزت لها قبراً في مدافن آل صباغة. وأنها ستدفن إلى جانب أعرق عائلات بيروت.

«نحن العائلات السبع يا ستي، وسوف تدفنين مع إحدى العائلات الكبرى. كأنك في بيتك».

وتبدأ مدام صباغة في حكاية القصة، تحيك صوفاً أزرق بصنارتين زرقاوين وتجلس في صدر الصالون، «فيتسكي» معها، تستمع ولا تسمع، ومدام صباغة لم تكن تضيء الكهرباء إلا عندما تلف العتمة كل شيء. أما في ساعات المساء الأولى، حيث يمتزج الضوء بالعتمة، ولا تعود «فيتسكي» قادرة على أن ترى غير الفجوات في الحيطان، فكانت مدام صباغة ترفض أن تضيء.

«أنا مش بخيلة، بس لشو الكهرباء، ما نحن شايفين، بعدين حرام».

«الحق معك»، تقول «فيتسكي» وهي تتثاءب، وتقول بعربية مكسرة إنها زهقت وتريد أن تنام، صارت «فيتسكي» تتكلم العربية عندما تريد أن تعبّر عن عدم رضاها. كأن هذه اللغة لا تصلح إلا للتعبير عن عدم الرضى أو الشتائم.

ومدام صباغة تتابع حياكة صوف أزرق، لن ترسله لابن بنتها، فابنتها لم تتزوج، ولا تعيش في فرنسا، الابنة في مستشفى الأمراض العقلية في «دير الصليب» وهي لا تزورها، وتقول لجميع الناس إنها

أرسلتها إلى فرنسا، حيث تزوّجت. وانها تحيك الصوف لجورج الصغير.

«فيتسكي» تريد أن تذهب، ومدام صباغة تستبقيها وتحكي عن عائلتها التي انقرضت.

«متل الكذب، ماتوا كلهم، وما بقي غير أنا، أنا مثلك يا فيتسكي، صرت وحدي وما عندي حدا».

« لا أنت لا، أنا، أنت بتعرفي أنا مين».

«طبعاً بعرف؛ بس ماتوا، واحد كان محامي وواحد كان صحافي، وواحد كان شاعر. ثلاث أخوة. الأول تزوج وما خلّف، والثاني ما تزوج، بقي داير ورا الأرتيستات، والثالث مات شاب كان عمره ١٨ سنة، وكان اسمه شكري، هيدا شكري يا عيني، متل بدر النهار. مات بالتيفوس وهو ابن ١٨، وما بقي غيري، وأنا كمان ما خلفت غير هالبنت. زوجوني ابن عمي، قال حتى ما تروح الثروة برات العيلة. وكان الله يرحمه، مثل ما بتعرفي، بسيط شوي. قضى وقته يبيع الأراضي يللي ورثناها، وبعدين حط راسه ومات، كلهم ماتوا وما خلّفوا صبيان وما بقي في حدا. شكري كان مجنِّن الجزويت، مرة طلبوا من ولاد الصف يكتبوا شعر. شكري كتب عشرين قصيدة لأولاد الصف كلهم، على عشرين بحر وعشرين قافية، وقصيدته هو كانت أحلى قصيدة، جننتِ الرهبان.

لا تَـرْكُنَنَّ لـراهـب جزويتٍ   متعمّـماً بعمـامـةِ العفـريتِ

يمشي بها كالتيس في أوكاره أو أحزانه أو ما بعرف شو. يا دلّي أنا

الوحيدة يللي ما كان عندي ذاكرة. تفو على الذاكرة، بتاكل الواحد أكل وتخلّيه يتبهدل متل المجدوب».

نفس الحكايات تتكرر كل مساء. كيف ماتت وديعة الخادمة، ونقلوها إلى قريتها البعيدة في عكار، وشتائم ضد الحرب والمحاربين، وقصص الحلاق، ومدام نهى عون التي قتلت. و«فيتسكي»، معها كأنها أختها.

سمعان فياض قال لفيتسكي إن مدام صباغة ستكون مثل اختك. قال لها إنه سيخلصها من علقة المطران ويأخذها لتشتغل في راس بيروت عند بيت الصباغة، والمدام ستكون مثل أخت لك وأكثر.

بعدها اختفى سمعان فياض.

«فيتسكي»، تحدثت عنه مرة واحدة أمام مدام صباغة. قالت إنه شاب لطيف وحبّوب. فغرقت المدام في الضحك.

ـ هيدا اجدب يا أختي، أوعا تكوني حبّيْتيه».

و«فيتسكي» كانت تشمئزّ من هذا الكلام عن الحب. هي لم تحب احداً، بقيت طيلة حياتها مخلصة للضابط الروسي، الذي بحثت عنه في كل مكان، بقيت حوالي عشرين سنة تذهب إلى الصليب الأحمر في بيروت، وتطلب البحث عنه، ثم توقّفت عن الذهاب، لأن الموظف صار يعاملها بوصفها مجنونة. «فيتسكي» لم تحب سمعان فياض الأهبل، فقط قالت إنه كان حبّوباً.

وكان سمعان فياض أهبلِ فعلاً، كانوا يعاملونه على هذا الأساس، لم يعرف ان يشتغل شيئاً. أضاع ثروة والده بجرة قلم، بعد أن أقنعه أحد أعمامه أن يصبح شريكه في تجارة الحرير. طارت

التجارة وطارت الثروة، وصار سمعان فياض قندلفتاً في كاتدرائية القديس جاورجيوس، في وسط البلدة ويداوم كل مساء في المطرانية، ولا يفعل شيئاً.

سمعان فياض هو الذي أخبر «فيتسكي» أن روسيا هي ملح الأرض، وروى لها حكاية جدّه، عندما زار الأمير اسكندر، شقيق القيصر، بيروت عام ١٨٩٦، وتجول في حيٍ السراسقة، حيث عاش الجدّ فياض فياض، الذي كان يشتغل تاجراً للحرير.

روى أن شقيق القيصر كان يركب عربة تجرّها ستة خيول عربية أصيلة، ويتجول في بيروت. وصل إلى حي السراسقة، حيث رأى مشهداً غريباً. رأى كومة من الملح مفروشة على جانب الطريق، طولها حوالي خمسة أمتار، وعرضها حوالي متر، وفوقها غرست مئات الشموع المشتعلة بالضوء. والخواجة فياض فياض، يقف إلى جانبها بطربوشه الأحمر، وقمبازه الحريري الأبيض، وزناره المقلّم. يقف أمام الشموع كأنه يحرسها، وينتظر.

أوقف شقيق القيصر، عربته التي تجرّها ستة خيول عربية أصيلة، ونزل منها ورأى فياض.

«ما هذا»، سأل الأمير الروسي الأشقر، الذي كانت تلتمع عيناه الزرقاوان.

انحنى فياض فياض، حتى كاد يلامس طربوشه الأرض، وقال «هذه لسموّ الأمير».

سأل الترجمان الذي كان يرافق شقيق القيصر، عن معنى هذا.

استقـام فياض وقـال: «الملح، الملح يعني أن روسيا هي ملح الأرض».

نقل الترجمان كلام فياض إلى اللغة الروسية، فاستحسنه شقيق القيصر، بابتسامة كبيرة لمعت في وجهه.

و «الشموع»، سأل الأمير.

لم ينتظر فياض الترجمان، كي ينقل له سؤال الأمير إلى العربية وقال:

«الشموع يا مولانا، الشموع يعني أن روسيا هي نور العالم».

بعد أن نقل الترجمان جواب فياض إلى اللغة الروسيـة، تقدم الأمير من الرجل اللبناني ووضع يده على طربوشه وقال:

«اطلب مـا تشاء، أنا أتكلّم باسم قيصر الروسيا، قيصر الروسيا يضعك تحت حمايته، وهو مستعدّ لتلبية كل طلباتك. اطلب ما تشاء، وطلباتك سوف تُلبّى كلها».

استمع فياض فياض إلى كلام الأمير بصوت الترجمان، وعيناه تنظران إلى الأمير ولا تصدقان.

احتار الرجل الكهل المتغضّن الوجه ماذا يطلب، فوقف صامتا كأنه لم يستمع إلى كلام الأمير الروسي.

«احكي يا خال»، قال الترجمان.

قال فياض فياض إن له طلباً واحداً.

«شو طلبك»، قال الترجمان، كأنه يستعجل فياض أن يحكي.

«طلبي يا ابني، قل له قل لصاحب السمو، قل له، ما بقى بدي يقولوا لي دَنْدِلّهْ يا فياض»

«شو هالحكي»، قال الترجمان.

«انت قل له كل يوم المسا، بيجي هيدا يللي بيضوّي الشارع، بكون قاعد ببيتي في الطابق الأول، بيجي وبقللي دَنْـدِلُّهْ يـا فياض، بدندلّه، بعبّي القنديل كاز وبرجع بسحبه بالحبلة وبعلقه وبولعه. ما بقى بدي حدا يقل لي دندله يا فياض».

لا يعرف فياض فياض، ماذا تـرجم المترجم لشقيق القيصر، لكنه رأى ابتسامة الأمير تشعّ في وجهه. كان وجهه يضيء كأنه أيقونة. ركب شقيق القيصر عربته التي تجرّها ستة خيول عربية أصيلة، وترك فياض شموعه مضاءة كل الليل.

سـألت «فيتسكي»، وهل تـوقف فياض عن دنـدلـة قنـديله. فجاوبها فياض الحفيد «أنه لا يعرف، فـتركيا رحلت وجـاء الفرنسيس، وفي أيام الفرنسيس تغيّر كل شيء، وصار الرهبان الجزويت يتحكمون بكل شيء، ونحن ما عدنا نعـرف بأي بلد عـايشين، سـاعة ولايـة بيروت، وساعـة لبنان الكبيـر، وساعـة سوريـا وساعـة ما بعـرف، الفرنساوية متل الخوارنة، ما حدا يفهم عليهم».

كـان سمعان فيـاض يحاول أن يشـرح للأميـرة الروسيـة، أن الانتداب الفرنسي هو سبب كل المصائب. لكنها لم تكن تفهم موقفه بالضبط، فهو كان يحب فرنسا ويحب النوم.

«فيتسكي» لم تعد ترى سمعان فياض، منذ قدومها للعمل في منزل آل صباغة. لكنها كانت تقول إن جميع هؤلاء اللبنانيين يشبهون

فياض، لا يعرفون ماذا يطلبون ولا ماذا يريدون. وكانت تكره القسيس أمين بشكل خاص، وترفض أن تتكلم معه. تنظر اليه من رأس أنفها عندما يأتي لزيارة مدام صباغة. تدخل إلى غرفة صغيرة قرب المطبخ وتفتح التلفزيون.

القسيس أمين لم يحاول أن يتكلم معها. كان يعرف أنها تكرهه، وهو أيضاً كان لا يحبها، وكان يرى فيها المعرقل الأساسي لعلاقته الجديدة مع ليليان صباغة.

والقسيس أمين يشعر بالوحدة. منذ أن سافرت زوجته وهو يشعر بالحزن، وبأن العالم يتلاشى من حوله. كنيسته صارت فارغة، لم يعد يأتي اليها أحد، وهو أيضاً، قرر أن لا يصلي فيها. صار يصلّي في بيته وحيداً، يقرأ الانجيل، ولا يعظ. ويشعر أن حلقه جافّ، وأنه بحاجة الى الكثير من الويسكي. صار يجد نفسه وحيداً أمام كنيسة «السيدة» والخوري يوحنا يقوده الى منزله.

قال غاندي لأليس إن الخرف أكل عقل القسيس أمين، وأنه لم يعد يستطيع أن يحكي بشكل طبيعي. صار يبصق اكثر مما يتكلم.

وأليس تبتسم. هذه هي الدنيا، تقول، «مين كان يقول ان العزّ كله بصير متل التراب».

لا أحد يتذكر القسيس أمين كيف كان. كيف فتح كنيسته وبنى رعيته وحده.

القسيس أمين أخبرها، وأليس صدقته.

قال إنه أصيب بخيبة أمل عندما لم ينتخب قسيساً لبيروت، بعد وفاة القسيس فؤاد طحان. يومها، كان ذلك عام ١٩٦٣، جاء الفرد.

والفرد كان رجلاً غريب الأطوار، يقال إنه شارك في محاولة الانقلاب العسكري الفاشلة التي قام بها الحزب القومي السوري سنة ١٩٦١، وأنه بعد سنة من السجن صار يشتغل ضابطاً في المكتب الثاني. كان الفرد يريد الزواج من سامية ابنة القسيس أمين. لكن سامية رفضت، لأنها كانت عاشقة لطالب اميركاني أحمر اللحية، سوف يصبح زوجها ويأخذها إلى كاليفورنيا. الفرد هو الذي بدأ بإقناع القسيس أمين بتأسيس كنيسة مستقلة في راس بيروت. هو استأجر البيت، وجمع له الرعية، وأقنع الدكتور جون دايفيز بأن يصبح أول أبنائها. كان الفرد صوايا في الأربعين، أصلع، عيناه جاحظتان، وشفتاه متدليتان وحمراوان.

جاء الفرد إلى الاجتماع الأول للكنيسة، وقال إنه يجب انتخاب قسيس، وأعلن ترشيح نفسه، واستفاض في الكلام عن مزاياه، وعن جده الذي كان أول من اعتنق المذهب البروتستانتي في سوريا ولبنان.

كادت الكنيسة تطير من يدي أمين العرموني، لولا أن جون دايفيز حسم المسألة. وقف الأميركاني الطويل وسط القاعة الصغيرة المليئة بالنساء والرجال وتكلم بالعربية.

قال «لا يجوز، انت ضابط يا مستر الفرد، والضابط لا يحق له أن يكون قسيساً، ونحن نريد القسيس أمين».

توقع أمين أن يدافع الفرد عن نفسه. لكنه لم يتكلم، خرج من الكنيسة ولم يعد. ومن يومها صار القسيس أمين، راعياً لكنيسة راس بيروت الانجيلية، التي رضيت به وأحبته.

أمين لم ينس أنه بدأ حياته مبشراً، وأن واجبه هو هداية غير المؤمنين. فوجد في غاندي الصغير ضالّته التي يبحث عنها.

كان غاندي قد أقفل مطعمه نهائياً بعد موت الكلب، وعاد إلى مهنة البويا. يضع علبته أمام مطعم «فيصل»، ويجلس منذ السادسة صباحاً. كان بثيابه الفضفاضة ورأسه المنخفض، علامة الشارع الأساسية. كان البويجي الذي يقصده الجميع، يشتغل بصمت وهدوء، ولا يكاد يسمع صوته. حين يتكلم كان يوشوش ويحرك يديه، كأنه يعتقد أن الصوت يخرج من اليدين، فلا يفهم الزبائن عليه، لكنهم يأتون. كان شغله لا يتوقف، خاصة بعد أن قرر القسيس ضمّه إلى كنيسته الصغيرة، فصارت الرعية كلها من زبائنه.

قال غاندي لأليس إنهم مجموعة غريبة من الناس.

قال لأليس، إن هؤلاء، جماعة القسيس مساطيل، يبتسمون كل الوقت.

«كل الوقت بدهم يبرهنوا أنهم مبسوطين».

وكان غاندي سعيداً بهم. أحذية لا تنتهي، وابتسامات. يبتسم لهم، لكنه كان متردداً بشكل دائم. فهو لا يعرف ماذا عليه أن يفعل كي لا يفسد عليهم فرحهم. هل يبتسم أم يصغي، أم يدّعي الانصراف الكلّي الى العمل؟

كانوا يأتون، يقفون بأحذيتهم على لسان علبة البويا، ويتحدّثون طيلة الوقت. يسألونه عن شغله وأولاده، وهو يجاوبهم «بالتي هي أحسن». يروي غاندي بشكل خاص عن ذلك الشاب الأشقر الملتحي، الذي لم يكن يتوقّف عن طرح الأسئلة على البويجي، يسأله عن قريته ووالده وجدّه، وما هو رأيه في بيروت.

«أنا ما بعرف شي»، يجاوب غاندي.

«هيدا يللي بيهمني»، يقول الرجل. «أنا بتهمني البساطة، الفلسفة اليوم هي اكتشاف البساطة».

وصار يزور غاندي في بيته، ويأكل معه في معيجنة البرغل، ويجلس على الأريكة داخل بيته الصغير، ويحكي ويسأل.

«أنا أبحث عن الحياة، حيث أجدها».

قال الفتى الأشقر الملتحي لجميع الناس. قال إنه اكتشف الحياة البسيطة عند غاندي، وأن غاندي يشبه المسيح، وأن الفقراء هم ملح الأرض.

مرة كان غاندي في الكنيسة.

لا يعرف غاندي لماذا وافق مع القسيس أمين على دخول الكنيسة. هو «أخو شحطة»، كما قال، لكن هذا ليس مبرراً كافياً للذهاب. ربما أغراه هذا الفتى الملتحي ببساطته ورقته التي تشبه رقة النساء، أو لأنه أراد أن يتفرج عليهم كيف يصلون، أو لأنه فكّر أن المسألة ليست خطرة، وأنه لا مانع.

«لا مانع» قال للقسيس أمين.

«الأحد الساعة التاسعة»، قال القسيس.

«الأحد»، جاوب غاندي.

جلس غاندي في المقعد الخلفي، ولم يفهم شيئاً. كانوا يرتّلون ويهزّون رؤوسهم وأجسادهم، وهو يتفرج، «كأنني أتفرج على التلفزيون»، قال لأليس. وفجأة انتهى التلفزيون، جلسوا كلهم وأغمض القسيس أمين عينيه وبدأ يصلي. وبعده صعد ذلك الملتحي الى المنبر وتكلم عن البساطة. كان القسيس أمين يجلس في مقعد جانبي

وهذا الملتحي يقف ويخطب ويشير باصبعه الى الأعلى، كان يتكلم بعربية فصيحة لم يفهم غاندي نصفها، صوته كان متهدجاً وشرايين رقبته منتفخة ويده ترتفع وتهبط وهو يقول «طوبى للبسطاء»، والحاضرون في مقاعدهم يهمهمون كأنهم يفهمون.

«طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات، طوبى للحزانى لأنهم يتعزّون، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض، طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون، طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله، طوبى. . .».

هو يقول طوبى ويشير باصبعه، والوجوه تلتفت الى الخلف حيث يجلس غاندي. وغاندي يشعر أنه كالكلب، ثم رأى نفسه يخرج من الكنيسة، كانت نظراتهم تشكّ في وجهه، فخاف وخرج من الكنيسة، وترك الفتى الملتحي معلقاً في كلماته على المنبر.

قال غاندي للقسيس أمين إنه خاف.

ضحك القسيس وهو يضع حذاءه على لسان الصندوق وقال «بسيطة، الشاب كثير الحماس، ومش عارف كيف لازم يحكي، الله يسامحه».

«الله يسامح الجميع، بس قل له يحلّ عني».

«طوّل بالك يا شيخ»، قال القسيس.

«الله يطوّل عمرك يا مولانا، انتم كلكم بتحكوا انكليزي، وأنا ما بفهم، هيدا شو اسمه، صار يحكي عربي كأنه عم يحكي انكليزي، وأنا ما بفهم، أنا».

وضحك غاندي وأكملت يداه الجملة.

اقتنع القسيس أمين. القسيس أمين كان يريد غاندي، لكنه يكره هذه البساطة التي يصطنعها الأميركان. كان يكره البساطة عند زوجته اوجيني. فهي تتكلم بهدوء وتلوي حنكها كي تمنع الألف من الانحناء، كما تنحني عندما يتكلم جميع الناس في بيروت، وتخفض صوتها وتضع يدها على فمها كي لا تظهر ضحكتها. وهي رغم تواضعها وبساطتها، تحتقر الفقراء وتكرههم. والقسيس أمين لم يزر أخوته منذ مدة. أمه ماتت، وشقيقه الكندرجي هاجر إلى السعودية، وشقيقه الثاني، هرب من طبريا عندما سقطت فلسطين، وسكن في بيت العائلة، لكن المدام لا تحبه، ولا تحب زوجته وأولاده، لأنهم مثل أولاد الفقراء.

أمين وافق، فهو لم يعد يعرف كيف يحكي مع أخيه أو مع أقربائه، صار مثل أقرباء زوجته، يرفع الألف، ويتكلم الانكليزية، وينسى.

غاندي قال للقسيس أمين بلاها. «بلاها هالقصة. إذا ما بدكم ياني بحمل الصندوق وبمشي، بلاد الله واسعة».

والقسيس أمين لم يقل شيئاً. قال له أن لا يذهب. وشرح له حكاية الشاب الملتحي والناس الذين زعلوا منه.

«هيدا شاب جايي جديد من أميركا، درس فلسفة وبده يبرهن أنه فهمان».

«بس أنا ما بقدر»، قال غاندي.

«معك حق يا ابني، وأنا كمان ما بقدر، ما بصير إلا على خاطرك».

وغاندي وافق على أن يسامح الملتحي ويغفر له ذنوبه، ويتوقف عن البصق في الطريق كلما رآه ماشياً في الشارع.

فالملتحي كان جاسوساً. هكذا قالت له مدام نهى عون، وهي تعطيه سكربينتهـا البيضاء والسوداء المليئة بالثقوب، والتي كان غاندي يجد صعوبة في صباغتها، فيتركها إلى النهاية كي يمزمز عليها.

قـالت نهى «إنه جـاسوس يـا سيـد غـانـدي، هيـدول كلهم جواسيس، بس أيامهم على آخر، بكرا بترجع فرنسا وبتخلصنا من كل هالزبالة».

لم يفهم غاندي هل تتكلم عن القسيس أمين وجماعته، أم تتكلم عن الأميركان الذين يملأون شارع «بلس» بشورتاتهم وكلابهم.

كل هذا انتهى. مرّ الزمن فوق رؤوس الجميع كأنه لمحة بصر، الأميركان غادروا والقسيس أمين صار يشخّ تحته، وكنيسته تحولت الى مستودع لبضائع المنلا وجماعته. الزيلع هو الذي قرّر. فبعد أن سرق كل شيء من الكنيسة على أثر اشتبـاك مسلح جرى بـين التنظيمـات المختلفة في المنطقة يومي ٥ و٦ حزيران ١٩٨٠، وأدى الى دمار كبير ومصائب وسرقات، قرر الزيلع، الذي كـان هو الكل بالكـل، أن الكنيسة يمكن ان تستعمل لأغراض مختلفة، فأعطاها للمنلا كي تصبح مخزناً للألبسة الجاهزة التي يستوردها أبو سعيد من هونغ كونغ وتايـوان، ويبيعها بوصفها بضائع أوروبية.

قالت أليس إن حالة القسيس تدهورت بشكل غريب. قالت إنها رأته يوم الأحد الماضي، كان ذلك يوم الأحد ٧ تمـوز ١٩٨٠. مشى القسيس أمين كالتائه. كان بنطلونه وسخاً ويكاد يسقط عن وسطه،

وهو يمشي حاملاً كتاباً أسود بين يديه. رأيته، قالت، رأيته يفتح باب الكنيسة بمفتاحه الطويل، ويدخل. ترك الباب مفتوحاً، ومشى فوق أكوام البنطلونات والقمصان، وقف أمام المنبر، وفتح كتابه وبدأ يقرأ أشياء عن أورشليم والأنبياء.

«يا أورشليم يا اورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين اليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا. هذا بيتكم يترك لكم خراباً، لأني أقول لكم إنكم لن تروني بعد الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب».

قرأ وقرأ، وكان صوته يخرج خفيفاً، ووجهه يتهدل، وقدماه ترتجفان. جلس كأنه يسقط على حافة منبره القديم وبدأ يبكي. كان ذلك بعد حكاية ليليان صباغة، وبعد ذهاب الجميع. قالت أليس إنها دخلت وأمسكته بيده تقوده الى بيته. لكنه مشى الى أمام كنيسة السيدة، وهناك أمسك بدرابزين الكنيسة كأنه لا يريد أن يتركها، وصار يصلّي بصوت مرتفع.

ومن يومها فرط الرجل. صار يهذي ويقضي الكثير من وقته داخل كنيسة السيدة، والخوري يوحنا يحاول أن يهدّئه، ويطلب من أليس أخذه الى بيته. لم يبق غير أليس، التي أخذته وحدها الى المأوى ورجعت بوجه أصفر وعينين متورّمتين من البكاء.

في فندق «سالونيكا» انفجرت أليس بالضحك، حين اعتقد المصري، صاحب الفندق أنها أصيبت بالجنون.

«شو صاير فيك يا أليس».

«عم بضحك على حالي وعلى هالدنيا. بكرا أنا مين بدّو يلمّني».

ولم يلمّها أحد. حين انفجرت الحرب من جديد في ٦ شباط ١٩٨٤، وتحولت الأسواق التجارية الى ساحة للدمار، اختفت أليس، ولم نعرف عنها شيئاً. هل ماتت أم ذهبت الى حيث لا ندري. هل لمّها أحد، أم تركوها وحيدة وسط خراب الأمكنة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

عندما تروي أليس ذكرياتها، تتكىء على يدها اليمنى، وتترك نفسها تنزلق. أنا رأيتها، ودائماً كانت هكذا، عندما تحكي تنزلق الى حيث لا أعرف اين.

«الحياة مثل الاسوارة يا ابني. انا لمن أخذ المقص تيقصلّلي الإسوارة، ضحكت. قرب المقص وكسرها، ولمن شفتها وقعت على الأرض فرطت بالبكي، وصار هو يضحك. كنت صغيرة وما بعرف شي، صار هو يضحك وأنا واقفة قدامه وعم ابكي. قال لي خلص. قومي تحمّمي والبسي بدنا نروح. تحمّمت ولبست ورحت، وبعدني رايحة. كان اسمه ابو جميل. امبرزاريو، يعني هو يللي بيزبط كل شي. هو يللي بيحكي مع صاحب الكباريه وبحدد السعر، وكلمته ما بتصير اتنين. رحت لمن قص الإسوارة. الحياة متل الاسوارة. تطلّعْ، هلق تطلّعْ وقل لي شو شايف».

رفعت يدها الى أعلى، وسمعت خشخشة. ورأيت الكم الأسود ينحدر عن معصمها وأساور فضّيّة رفيعة وواسعة.

«كل أساوري بعتها واشتريت غيرها. هيدا «المونتانا» مش بار، هيدا كيرخانة. الزيلع مش العسكري، ورجال هالزمان مش رجال، وأنا مش أنا، قوم يا ابني قوم، انت ما قلت لي انت ابن مين»؟

كنت أجلس معها في غرفتها في فندق «سالونيكا» غرفة جدرانها حمراء، القشور تظهر عليها كأنها لم تطرش منذ ألف سنة. وهي تجلس على طرف السرير الوحيد المرمي في وسط الغرفة العارية، والى جانبها على الأرض بابور على الكاز، تستخدمه من أجل غلي القهوة وسلق البطاطا. وأنا أجلس على كرسي مخلع من الخيزران، أضع وجنتي على يدي المستندتين الى ركبتي، وأحاول أن لا أضيّع أية كلمة من كلماتها.

«انت ابن مين، ما قلت لي».

«أنا قرابة مدام صباغة، امها بتكون اخت ستّي أمّ بيي».

«انت كذاب، شو بدك فيي، قوم يا ابني، انت متل ابني، ما بقى بدّي، بكرا بتخرف مثل القسيس، وبصير بدّي ابتلي فيك، وأنا ما بقى بقدر. بس انت شاب، صحيح يا ابني، انت ابن مين».

قلت لها إنه لا علاقة لي بكل هذه الحكاية، وانني أحب أن أستمع، وأن سمعان فياض، كان جارنا في «الجبل الصغير»، وأنا أعرفه من زمان. عرفته كهلاً يعيش مع شقيقته في منزل صغير في منطقة «الشلفون»، ولم أكن أعرف أنه حفيد فياض فياض الذي قابل شقيق القيصر، وملأ الأرض بالملح والشموع.

«انت كذاب، ليش عم بتكذب عليي».

سكتّ وسكتت. صبّت لنفسها كأس عرق ولم تمزجه بالماء، وشربته دفعة واحدة.

«انت شو بتشتغل».

«أنا بكتب، بشتغل كاتب».

«ولشو الكتابة، دخيل الله»؟

«تنألف كتب ونخترع ابطال، وتقراها الناس وتتسلى».

«بيتسلوا بالتلفزيون، مش أحسن».

«يمكن، شو بعرفني»، قلت لها كي أنهي الموضوع.

نظرت الى السقف كأنها تحاول أن تتذكر شيئاً، ثم التفتت اليّ.

«أنا بعرف واحد كاتب. كنا نشتغل عند «شاهين»، بتتذكر «شاهين»، أكيد ما بتتذكرو، كنت بعدك ما فقّست من البيضة، وهونيك

كان في واحد يجي كل ليلة، وقالوا أنه كاتب، وأنه متل جبران خليل جبران، كان علقان بواحدة ألمانية شقراء، سحبت روحه ومصرياته، العمى شو كانت قحبة، حدا بيعمل هيك بزلمة إذا انغرم فيه، بس هي قحبة، شو بدي خبّرك، كان يجي كل يوم ويقعد وما ينهزّ، وكل ليلة يجيبها على طاولته ويفتح قنينة. كان تخين، ووجهه أبيض مثل الموتى، آخر الليل يطلع ما معه مصاري، ياكل بدن ويقعد على الرصيف ويصير يستفرغ. قالوا هيدا كاتب. يا عيني على الكاتب. اوعا تكون انت مثله».

«أنا مثله»، جاوبتها.

«لا يا ابني، انت ابن عيلة، بس شو بدك فيي».

«بدي اكتب عنك».

«انت كذّاب، انت مثل الزيلع، ما بتعرف تقول ولا كلمة صح، كلّك كذب. صحيح شو بدك مني، بقدر أخدمك بشي».

«بدي تخبريني حكايات».

«ولشو خبرك؟»

«تأكتب».

«طيب بدل ما خبرك بكتب أنا».

وضحكت بصوت عال.

«يا ابني قوم، قوم حل عني، قوم روح وسلم لي على امك. أوعا يكون باعتك الزيلع، هيدا بدو يخلص مني، قال ابن الشرموطة ما بقى بدّو ياني بيع زهور بقلب «المونتانا»، قال عم بزعج الزبائن، ليش هودي زبائن، هودي تفقيس مكنات. شفت شو صار، بس الشغل مش عيب».

« معك حق» ، قلت لها .

«شو معي حق، كأنك ما فهمان شي، مثل الأطرش بالزفة، يا ابني القصة مش هيك، يللي محيّرني كيف هيدا بعده، كلهم ماتوا أو راحوا، البوابير امتلأت، وهو بعده، وهو بعده، غاندي مات وهو بعده. قتل اخته ويمكن قتل امه، وعمل زعيم وصار ريّس متل الريّاس. اجو اليهود وهو بعده، فيك تشرح لي، وهلق بده يشحطني من الشغل، وأنا رح موت وهو بيكون بعده، فيك تفهّمني، بس انت شو بيعرفك، قلت لي شو بتشتغل يا ابني؟»

واستلقت على فراشها، أغمضت عينيها وغفت. وقفت كي أغادر الغرفة، كانت تستلقي على جنبها الأيسر، ورجلاها مضمومتين الى صدرها كأنها دائرة.

وأنا اقف متردداً. انتابتني رغبة غامضة بأن أهزّها كلها، أن أمسك بها وأهزّها. اقتربت منها ففتحت عينيها نصف فتحة وابتسمت.

«انت متل أولادي، هلق بقوم، خلّيني غطّ خمس دقائق وبقوم».

تركتها ومشيت. وكان هذا آخر لقاء لي بها. فبعد أربعة أيام انفجرت في بيروت، وحدثت انتفاضة ٦ شباط، وهرب المارينز، وعلقت الحرب من جديد. منطقة فندق «سالونيكا»، تحولت الى خط تماس، وضاعت أليس.

عندما هدأ القصف في شهر آذار ١٩٨٤، ذهبت الى الفندق فلم أجد أحداً. وجدت متراساً عالياً أمام الفندق ومجموعة كبيرة من المسلحين. لم أجرؤ أن أسألهم عن صاحب الفندق أو عن أليس.

عدت الى البيت وضيعتها، وقرّرت أن أذهب الى المأوى للبحث عن القسيس أمين، علّه يعرف شيئاً، أو ربما أجدها هناك، تنهي حياتها في صحبته.

عندما أخبرتني أليس، أخذتني في رحلة الى قلب مغارة سوداء. «الذكريات ذلّ»، قالت لي. والذكريات مغارة، اكتشفت وأنا في صحبتها خلال هذه السنوات الطويلة التي اختصرها جسدها، وحوّلها الى لحظات متقطعة. والآن، عندما أحاول أن أروي، اكتشف أن الكلمات ليست علامات على الطريق، بل هي علامات تضيّعني. كأن كل كلمة هي اغتيال. كيف أروي حياة لم يعشها أبطالها، بل هي التي مرت بهم كأنها فعل اخترقهم. هكذا عاشت أليس وعاش غاندي، حتى الزيلع لم يكن أكثر من ممر لهذا الفعل الذي يخترق الجسد ويحيله الى كتل من الخلايا المتناثرة.

أروي عن أليس لأنني أحاول أن أستعيدها، فأكتشف أن الذكريات ليست ذلاً، بل هي مجموعة من الأوهام التي لا يمكن ربطها ببعضها، كأنها سلسلة فرطت وغرقت في قعر البحر.

وأليس لم تعد تبكي.

بكت مرة واحدة، ثم صارت الدموع حين تكرج من عينيها لا تشبه البكاء، صارت الدموع دموعاً، أما البكاء الذي يهزّ جذع المرأة، كما تهتزّ الشجرة في الريح، فهذا ذهب حين قصّ أبو جميل الأسوارة الفضية التي جاءت بها أليس من بيت أبيها في شكا. بعد هذه الحادثة

اشترت أليس الكثير من الأساور وباعتها. كانت تشتري وتبيع ولا تسأل. أبو جميل رمى القطعتين من النافذة. انحنى على الأرض، التقط نصفي الاسوارة، ورماهما من النافذة، وأخذ أليس الى الملهى الليلي. وهناك بدأت الحياة تنساب كأنها عتمة لا يمكن التقاطها. وفي تداعي العتمة والضوء، عرفت أليس الحب الذي يشلّ العمود الفقري، والحياة التي تقتل الحب وتحيله الى خرقٍ ممزقة، وبعد أن تركها الملازم طنوس الزعيم اكتشفت أن المرأة تضيع، وضاعت بين الموصل وحلب. في الموصل عاشت تلك الليالي السوداء، التي جعلتها تعتقد أن الرجل لا يشبه إلا الثياب السوداء. في الغرفة السوداء نسيت أليس طعم الملازم طنوس، ووجهه الذي كان يشعّ بالرغبة والحزن، شعرت في تلك الغرفة أنها تموت، وأن الموت يأتي، حين يأتي، على صورة رجل أسود، فاستسلمت له وصارت تغفو الى جانبه ولا تحلم. وفي حلب رقصت، كان الأرمن حولها في ذلك الملهى الذي نسيت اسمه، غنت لهم وبكوا على إيقاع صوتها. أليس لم تكن تغني في بيروت، كانت لا تفعل شيئا، ترقص قليلاً في وصلة أو وصلتين، لكن مهنتها كانت الجلوس الى موائد الزبائن. في حلب غنّت، جاء صاحب الملهى القصير القامة، الذي تفوح منه رائحة اللحم المشوي، وطلب منها أن تغني، فغنت «يا لور حبك قد لوّع الفؤاد». كان يرافقها على العود رجل كهل، قال إنه من انطاكية في الاسكندرون. انحنى على عوده كأنه سيسقط، وأليس غنّت، والناس بكت. وبعد أن عادت الى بيروت صارت تغني «يا لور حبك»، لكن لا أحد كان يبكي. بيروت لم تكن تبكي. مدينة يشعّ ليلها ويمشي فوق وجه البحر. كانت أليس وهي خارجة من ملهى «شاهين»، ترى الليل يمشي فوق البحر، فندق «السان جورج» كان يرتمي في البحر، والماء حوله يتحول الى بقع من العتمة والضوء.

صحيح أنها عاشت وحيدة، لكن وحدتها لم تكن مجرد ثقوب في الذاكرة.

الحب الثاني في حياتها لم يكن كالحب الأول. اسم الرجل أبو عباس اليتيم.

كان أبو عباس اليتيم، يجلس طيلة النهار على مصطبة مرفأ الصيادين في «عين المريسة»، بالشورت والقميص القصير الأكمام، صيفاً، شتاء، لا يتغيّر، كأنه لا يبرد. ويعرف كل الناس. «كلهم أصدقائي» قال لأليس. قال لها إنه لا يشتغل شيئاً. في الماضي كان يشتغل صياداً، أما الآن فلا شيء. يجلس فيأتيه الشغل، يجلس لأنه لا يحب الشغل، فيأتي الشغل وحده. أليس لم تحبه في بادىء الأمر. جاء عدة مرات إلى ملهى «شاهين»، كان يجلس في الصف الخلفي وينتظرها، وعندما تنتهي من جميع الزبائن تراه واقفاً أمامها، ويقول «يا عيني عالجمال، يلّله». لم تكن أليس تذهب معه، تنظر اليه كأنها لا تراه وتمشي. وكل يوم، كانت هذه الـ «يلله»، تنتظرها على باب «شاهين». وبعد أسبوع أو شهر، لم تعد أليس تذكر، وهذا ليس مهماً على أية حال، وجدت نفسها معه.

قالت أليس إنها حين كانت معه، لم تكن معه. كانت عيناه صغيرتين كحبتي عدس، وجبينه عريضاً، ويداه كبيرتين كبلاطتين. يأخذها الى غرفته ويجلسها في الخارج أمام المصطبة، يضع سلة الفاكهة أمامها ويتحدث. كانت أليس ترتجف من البرد الذي يفترس عظامها، لكنه كان يجلس جامداً كأنه لا يشعر بالبرد. ثم يذهب وإياها الى وراء الغرفة، الى باحة صغيرة مليئة بالشموع، وهناك يبدأ في مغازلتها. كانت الباحة مسوّرة، والشموع نصف الذائبة تملأ أرض المكان،

ورائحة بول وعفن. هناك كان يأخذها واقفة، وهي لا تعترض تتركه يقترب ويبتعد ويتمايل كأنه ظل يتماوج وسط أضواء الفجر الشاحبة، التي تشبه الباذنجان. ثم يدخلان الى الغرفة ويناماان.

قالت أليس إنها لم تكن تحبه.

«الحب بعدين، بعد ما تخلص الحكاية، الواحد بيعرف إذا كان يحب أو ما كان يحب. بالحكاية بضيع الواحد. هلق بعرف، طنوس على راسي، بس هيدا، اليتيم، لا، ما كنت حبه،بس شي تاني».

والشيء الثاني هو البحر. قالت أليس إنه كان يعطيها شعوراً بالبحر. رائحته كرائحة البحر. هو قال لها إن البحر ليل. وكان يسبح في بحر الليل، يخلع قميصه ويقفز، وهي تراقبه كيف يضيع في بحر الليل. تقف خلف السور الذي تغطّيه الشموع، وتنظر الى البحر، فترى الليل. ثم حين يخرج من الماء والملح، يأخذها من جديد، ويتركها ترتعش بالماء والرغبة التي لم تكتمل.

كانت تراه في النهار محاطاً بالسيّاح والفضوليّين. يدخل الى غرفته، ويخرج منها دفتراً قديماً مليئاً بالكتابات. يقول إن تاريخ «عين المريسة» في هذا الكتاب. يقف أمام الكاميرات وهو يدل الصحافيين والأجانب على الشموع المطعوجة ونصف الذائبة. ولا يملّ من رواية حكاية الراهبة الايطالية.

الراهبة، قال.

كانت السفينة تغرق في عرض البحر، ويشير الى الأفق البعيد، والناس ينظرون الى أبعد نقطة يبتلعها الأزرق المستدير. غرقت السفينة وخرجت منها الراهبة، خرجت وحدها، جميع الناس رأوها، فرأوا

قبعتها المثمَّنة البيضاء، وهي تطفو فوق سطح الماء. كانت تطفو كأنها صندوق أبيض، وبدأت الراهبة في الظهور. كانت لا تسبح، كانت كأنها تمشي، أي والله كانت تمشي، راهبة ايطالية تمشي فوق الماء. ارتفعت القبعة البيضاء، وبدت الراهبة في ثيابها الممزقة، والناس تقف هنا، ويشير الى مكان وجود الشموع، الناس هنا، والراهبة تأتي من هناك، من تلك النقطة البعيدة، كأنها تمشي. أنا، يقول أبو عباس، كنت صغيراً، أبي رآها، ورحمة ترابه، ابي قال إنها مشت، وحين وصلت الى هنا، الى حافة البرّ، ركض الناس، أحدهم جلب شرشفاً أبيض، التفّت به والتصق الشرشف على جسمها. وأقامت هنا، لم تطلب شيئاً، وجلست هنا، وهنا لم يكن سور، كانت الأرض رملاً وصبّيراً، ركعت قرب الصبير وبدأت تصلي. ثم بنت لنفسها كوخاً وصارت تعيش بين الناس، كأنها طيف. قيل إنها بنت مدرسة، والله أعلم، وكانت تذهب الى فوق لتشرب، الى النبع الذي كان هناك، ويشير بيده الى لا مكان، ولا أحد يسأله ماذا جرى للنبع الآن واين هو، وهناك بنت مدرسة، كانت تعلّم الأولاد وتحفظ القرآن، فصار اسمها الريّسة، وصار اسم المنطقة عين الريّسة، وتحول الاسم بفعل التحوير والزمن الى «عين المريسة».

كل هذا مكتوب في الكتاب. هذا هو الكتاب الذي ورثته عن أبي، تستطيعون أن تقرأوه. يضبّ الكتاب، ويقف أمام الشموع ويبتسم.

وهذه الشموع، نسيتم الشموع يقول، هذه شموع النذور، حتى الآن، يأتي الناس ويضيئون شموعاً للريّسة التي ماتت هنا، ودفنت

هنا. غالبيّة الذين يأتون من النساء، يركعون ويطلبون من الريّسة ويضيئون الشموع، وهي تستجيب.

أبو عباس، يروي حكايته كل يوم، وأليس لم تكن تصدّق شيئاً منها.

«أنت نصّاب عالمي»، قالت له.

«أنا نصّاب، هيك بدهم، بدهم أخبار، من وقت ما صارت المنطقة منطقة بارات صار لازم يكون في تاريخ، كلهم بدهم يعرفوا التاريخ. وشو هو التاريخ؟ التاريخ هو العجايب. من أيام سيدنا آدم، عليه السلام، والتاريخ عجايب».

«بس انت بتكذب عليهم».

«إذا بكذب بصدقوا، وإذا ما بكذب ما بصدقوا، بس أنا ما بكذب، أنا بحكي يللي سمعته، ويللي سمعته حقيقي، لأني سمعته، مش هيك».

«طبعاً مش هيك، قل لي شو كان اسمها الراهبة؟» سألت أليس.

«كان اسمها الريّسة، وكل الناس بتعرف».

«مفهوم»، قالت أليس.

كان أبو عباس يعيش من حكاية الريّسة، ويقال إنه كان يتاجر بالحشيش. قال لأليس مرة إنه يلحق القرش الفايش، و«القرش ما بفوش إلا على الحشيش».

أليس لم تكن تحبّه. كانت تأتي معه كل يوم تقريباً، تعطيه بعض

المال، لكنها لم تحبّه. ثم حين توقّف عن المجيء الى ملهى «شاهين»، لم تشعر بشيء، كأنه لم يكن، قالت. وأليس لم تتذكر شموع الريّسة، إلا عندما قتل العسكري. يومها ركضت الى السور وركعت أمام الشموع، وأضاءت شمعة وبكت. صلّت من كل قلبها أن لا يموت العسكري، ونذرت للراهبة الايطالية، رأته أمامها ميتاً، لكنها لم تصدق أن العسكري يمكن أن يموت. أضاءت ثلاث شمعات وبكت، وحين خرجت من وراء السور، رأت أبو عباس، أشار لها بيده من بعيد كأنه لا يعرفها. أحنت رأسها له. أحنت رأسها وخافت على القبعة البيضاء المثمّنة من السقوط، ومشت ببطء، كأن الشرشف الأبيض التصق بجسدها ومنعها من الحركة.

الزيلع مختلف، قالت أليس. لا شيء فيه يذكّر بالعسكري. «العسكري كان ربّ البارات، يا عيني على الشباب».

حين تصفه تغرق في ضباب يخرج من عينيها، تغرق في دموع لا تسقط، لكنها تحيط بوجهها كهالة من الماء. لم تكن أليس تتوقّع الموت. كانت سنة ١٩٧٤، وأليس تترنّح في رحلتها، وتكاد تسقط تحت ضربات العمر. كانت في السابعة والأربعين، تعيش وحيدة في غرفتها في «عين المريّسة» وتشتغل في ملهى «البلو أب»، لم تجد غير العسكري، قال لها صاحب البار إنها تهركلت ويجب إحالتها الى التقاعد، فذهبت الى كمال العسكري وأخبرته. وكان هو الكل بالكل. شاب أسمر، طويل، عريض المنكبين، حاجباه رفيعان كأنها رسما بالقلم، يمشي كأن رجليه تنتقلان وحدهما ثم يتبعهما الجذع. كان هو الملك. يدخل إلى البارات كلها، يشرب كما يحلو له، كل الفتيات تحت أمره، ولا يدفع. وفي رأس كل شهر، يقبض ما تيسّر من الجميع. ولا أحد يعترض. كان

يحمي الفقراء ويعطيهم، ويقول إنه لا يشرب الخمرة، مع أنه يشرب كثيراً ولا يسكر.

لولا العسكري لوجدت أليس نفسها مرمية في الشارع. هو الذي قال لصاحب البار إن أليس يجب أن تبقى وبقيت. صحيح أن الأيام انقلبت، لكنها بقيت في عملها. أوائل السبعينات كان الانقلاب الكبير، كل شيء تغيّر، حتى ذوق الناس صار مختلفاً. كأنهم سئموا من الفتيات الممتلئات الأجسام. أليس لم تكن سمينة، جسمها كان ممتلئاً، كانت «تعبّي العين»، كما قالت. فجأة تغيّر كل شيء، ومات كمال العسكري، وصارت أليس وحيدة.

«هذا الزيلع لم يكن شيئاً. مجرد غنيّ حرب. أغنياء الحرب كلاب لأنهم بلا أصل ولا فصل، وأنا ما حبيته، ما صار شي، بلى مرة كنت سكرانة، ويومها صرت متل المجنونة، وكان هو متل المجنون، ضربني وصرّخ وكسّر عظامي. كان مجنون، وبعدين صار ينطح راسه بالحيطان ويبكي. انتهت بالبكاء. وأنا كنت عم بتفرج، وما قبل يروح، بكى وكان رح يموت من البكاء، أنا ما شفت رجال بيبكي بهالطريقة. الملازم طنوس لمن صار متل المرا تلبّك وصار رح يتفركش بس ما بكي، أبو جميل ما بكي، لمن طرده صاحب «البلو أب»، وبصق بوجهه، لأنه كان يأخذ من البنات كوميسيون إضافي ويبيعهم كوكايين مضروب. بس هيدا الزيلع، ما بعرف من أي صنف هو. رجال قال، هيدول مش رجال، هيدول زبالة».

ومات كمال العسكري.

كان مشهد «البلو أب» يومها ولا كل المشاهد. وحتى الآن لا أحد يعرف، هل قتل العسكري برصاص أسعد عواد، أم برصاص

شخص ثالث. أليس لا تعرف، كل الذين كانوا هناك لا يعرفون. فجأة لعلع الرصاص. قيل إنهما اختلفا على فتاة. قيل إن العسكري دخل الملهى، فرأى ابن عواد جالساً مع ريتا الايطالية، وكانت ريتا للعسكري. كل الناس كانوا يعرفون أن ريتا للعسكري. دخل العسكري فرأى عواد جالساً معها، يده خلف ظهرها ويشربان. لم يقل العسكري شيئاً. وقف، بكل هدوء، ثم سمع إطلاق رصاصة واحدة. أليس لا تعرف كيف حدث ذلك. ربما أراد العسكري أن يعلّم على العواد كما علّم على الجميع. وتعليمة العسكري بسيطة، يطلق رصاصة واحدة على قنينة الويسكي، فيفهم الآخر أن هذه هي منطقة العسكري، وينسحب، وتنتهي المشكلة.

قالت أليس إن ضباط البلد، كانوا كلهم يخافون من كمال العسكري، لا أحد كان يعارضه، حتى العواد كان يعرف أصول اللعبة لأنه ابن كار، لذلك لا أحد فهم الذي جرى، ولماذا ما هكذا. قيل إن العسكري شهر مسدسه، وأنه أطلق النار في اللحظة نفسها التي التفت فيها العواد إلى الوراء وأطلق النار، وأنهما ماتا معاً. أليس لم تصدق. رفضت أن تصدق أن العسكري يموت.

«كمال العسكري لا يمكن، لا يوجد أسرع من إصبعه في إطلاق النار».

بعض الذين كانوا هناك قالوا إن العسكري قتل العواد، ثم أطلق عليه أحدهم النار فمات. آخرون قالوا إن العسكري شهر مسدسه لكنه لم يقوّص، شخص كان في البار أطلق النار على الاثنين وقتلهما. قيل إنها جريمة، وأن المكتب الثاني تخلص من الاثنين. لكن

أليس لا تصدق. أطلقا وماتا، وهـذا أفضل، قـالت وهي تحاول أن تروي القصة من بدايتها.

يومها اشتعلت بيروت.

تقول أليس إن الحرب بدأت في «البلو أب». «لو بتشوف، لو كنت هون، شي مش معقول، بيروت كلها، كل بيروت طلعت على الطرقات، كل الطرقات مشيت، وكان العسكري طاير فوق الأيدين، كان طاير والناس تحته. كان فوق الكل، ولمن نزل على التربة بلشنـا نسمع القصص. النسوان لو بتشوف النسوان، اجت النسوان وبلشت تبكي. محجبات وسافرات ومن 'كل الأنواع. كان يصرف على قبيلة، هيدا رجال، قتلوه، أنا بقول قتلوه، هـو مش ممكن، لمن العسكري بيقوّص ما بيتقوص. بس تقوّص، أنا شفته كيف وقع، وقع كأنه جبل، كأنه باب».

أليس ترفض أن تصدق. لكنهما ماتا. أطلقا النار وسقطا. وريتا هربت. ريتا الايطالية تعرف الحقيقة، لكنها اختفت. سافرت وأخذت السرّ معها. قيل إنها كانت تشتغل مع المكتب التاني، وقيل إنها جاسوسة إسرائيليـة، لا أحد يعرف.

بيروت في ذلك اليوم عاشت في مأتمين. مأتم قطع الكورنيش المزرعة في بيروت الغربية، وصولاً إلى مقبرة الشهداء، ومأتم مشى من محطة أبو عربيد في بيروت الشرقية، مروراً بمحطة بنزين كـان يملكها أسعد عواد، وصولاً إلى مقبرة مار متر.

منذ ذلك اليوم، وبيروت تلبس الليل.

تقول أليس ان الحرب الأهلية بدأت هناك. ومنذ ذلك اليوم لم تر نهاراً واحداً مثل الأيام السابقة.

«كل شيء تشرشح»، قالت. «صارت البنت متل السكربينة، وصارت السكربينة أحسن من الزلمة، راحوا الزلم واجا الزيلع، ومن بعده اجا القزم، ومن بعد القزم اجا المصري، كلهم مش زلم».

تروي أليس أن سعاد عندما اختفت سنة ١٩٧٦، ذهبت هي إلى الزيلع. كان كاباريه «المونتانا» مليئاً برائحة تلك الأضواء. صارت الأضواء الخافتة المبثوثة في جنبات الكابارية تدخّن كأنها شموع مطفأة، وفيها رائحة كريهة. كان الملهى مليئاً ببدلات شبه عسكرية، رجال يجلسون مع فتيات يشبهن الصبيان، والضحكات الكاذبة تفرقع في المكان. والزيلع يجلس على مدخل الكاباريه كأنه ديك.

دخل غاندي، في البداية لم تره أليس. كان يلبس الجاكيت السوداء الواسعة الكتفين، ويمشي برأسه المنحني كأنه سيسقط، وأليس جالسة على البار وحيدة، أمامها كأس من الشاي مع قليل من الثلج، وسيجارتها المشتعلة على المنفضة، وعيناها لا تريان شيئاً. تقول أليس إنها تستطيع أن تجلس هكذا ساعات طويلة دون أن تفكر في شيء. تصبح كالحجر، تفتح عينيها إلى الأقصى، ولا ترى ولا تسمع. بحث غاندي عنها وسط الأحذية التي كانت تفرّ من أقدام الزبائن، كانت الأحذية كبيرة وتحتاج إلى كثير من البويا. وصل إلى البار ومد يده لأليس.

«قعود، شو بتشرب»، قالت أليس.

«لا، أنا عاوزك ضروري»، أجاب غاندي.

«خير انشالله»، سألت.

«البنت»، قال.

«كل البنات تحت أمرك، هلق صار بدك بنات».

«لا، بنتي سعاد، سعاد اختفت، من يـومين اختفت، بـرمت الدنيا، يمكن خطفوها، يمكن قتلوها».

كان صوت غاندي خافتاً ويتشرنق بالحزن.

«بسيطة»، قالت أليس. «هلق منحكي مع الزيلع».

أخذته وخرجا إلى الباب. كان الزيلع يدخن بنهم كأنه يمضـغ الدخان في فمه، قبل أن يخرجه من أنفه العريض. استمع الزيلع إلى حكاية اختفاء سعاد، دون اهتمام.

«هيدي البنت المجنونة، مش عم تحكي عن البنت المجنونة».

«بلى، بنتي مريضة».

«ايـوه، ايوه، فهمت عليـك، هلق منشوف، انت روح عـلى البيت، ونام على الدينتين، وأنا بدبّرها. ما تخاف، ولو، نحنا جيران، والنبي أوصى بالجار».

«يعني كيف»، سأل غاندي.

«كيف يعني كيف، قلت لك بدبّرها يعني بدبّرها. انت ما بدك البنت».

هزّ غاندي رأسه إلى الأسفل.

«خلص روح والباقي علينا، روح نام وبكرا انشاء الله بتكون البنت عندك».

ذهب غاندي إلى بيته ونام، وبقي الـزيلع جالسـاً في مكانـه. أرادت أليس أن تذهب مع غاندي، فمنعها الزيلع.

«انت شوفي شغلك جوا، شو انت فاتحة شغل على راسك».

دخلت أليس والزيلع لم يتحرك من مكانه. بلى دخل في الثانية

صباحاً، وبدأ يشرب. أليس لم تجرؤ على أن تسأله شيئاً، فهو يضرب. كل البنات كن يخفن منه لأنه يضـرب. انتظرتـه كي يخبرهـا لكنه لم يخبرها. سألته بصوت خافت. فضحك، وطلب منها أن تأتي معه إلى بيته. ذهبت معه، كان بيتاً كبيراً مليئاً بالمرايا. الكهرباء كانت مقطوعة. أضاء شمعة وطلب منها أن تمسّد له ظهره. خلع ثيابه واستلقى على بطنه فوق سريره العريض، وبدأت بتمسيده. طلب منها أن تخلع ثيابهـا، خلعت ثيابها، أخذت قليلاً من الكريم ومسدّت له ظهره. ثم بدأت تسمع شخيره، تركته وذهبت إلى غرفة ثانية حيث غرقت في نوم عميق.

في اليوم التالي، حوالي الرابعة بعد الظهر، مرت أليس من أمام مطعم «فيصل»، فرأت غاندي الصغير جالساً على كرسي قرب بائـع الصحف.

قال لها إن البنت عادت، وأنه سوف يشتري هدية ويأخذها هذا المساء إلى الزيلع، وقال إنه سيشتري له غليوناً.

حاولت أليس أن تقول له إن الزيلع لم يفعل شيئاً، وأن البنت، لا علاقة للزيلع بالبنت.

غاندي كان قد قرّر شراء الغليون، وقال لها أن تأتي لـزيارتـه مساء، قبل ذهابها إلى الشغل، كي يذهبا معاً.

رجعت سعاد.

كان غاندي في مكانـه المعتاد، يجلس حيث صنـدوقه الخشبي وحوله كومة الجرائد، والبائع الذي يغفو كل النهار، عندما رأى زوجته قـادمـة وهي تقـول إن البنت رجعت، البنت في البيت. فـركض مهرولاً.

في البيت رأى الفتاة. كانت خارجة من الحمام بشعرها الطويل الأسمر المجعّد المفروش على ظهرها، عيناها كبرتا وازدادتا تغضناً، رفيعة مثل الخيط، وترتجف. جلست إلى جانب والدها، احتضنته وغرقت في نوبة بكاء طويلة، وروت له.

قالت إنها ذهبت إلى بيتهم القديم في النبعة. قالت إنها لم تجد البيت. قالت إنهم اعتقلوها وأخذوها إلى كوخ. قالت إن أحدهم صار يضرب رأسه بالحائط. قالت إنهم تركوها، أركبوها شاحنة، وأمام «مستديرة الصالومي» رماها أحدهم فوق تلة نفايات. قالت إنها بقيت فوق التلة كل الليل، وإنها خافت من الفئران. قالت إن رجلاً جاء في الصباح، وحين رآها بدأ يركض ويصرخ. قالت إنها خرجت من كومة النفايات وركضت. قالت أن لا أحد أوقفها، جاءت مشياً من «سن الفيل» إلى «الحمرا». قالت إنها أضاعت فردة سكربينتها، فمشت نصف حافية. قالت إنها تريد أن تنام. وسكتت.

حاول غاندي أن يستفسر، لكنه لم يفهم شيئاً.

الزوجة، التي بقيت واقفة وهي تستمع إلى كلام البنت دون أن تفتح فمها، صرخت في زوجها.

«البنت راحت. بنتك راحت يا رجال، قوم شوف شغلك، قوم».

غاندي كان عاجزاً عن الوقوف على قدميه. ينظر كالخائف. ينتقل ببصره بين زوجته وابنته، يتنحنح ولا يقول شيئاً.

وقف، وأمر البنت أن تلبس ثيابها. الابنة لم تتحرك من مكانها، أوقفتها الأم، وألبستها فستانها الأزرق الطويل، أمسكها غاندي من

يدها وذهب بها إلى المستشفى، إلى عيادة الدكتور عاطف. كانت العيادة مليئة بالناس، أجلس غاندي ابنته، وتقدم باتجاه الممرضة. نظرت اليه الممرضة كأنها لا تعرفه.

«الله يخليك».

«عندك موعد»، سألته.

«لا».

«منعتذر، سجل اسمك وخود موعد، هلق مش ممكن، الحكيم عنده مواعيد كتير».

«الله يخليك»، قال غاندي بصوته شبه المبحوح. «الله يخليك انت بس قولي للحكيم، قولي له انه غاندي عم بيموت، انت قولي له وشوفي».

«بعتذر، الحكيم ما بيستقبل إلا بناء على موعد».

هنا بدأ غاندي الصغير يصرخ. لا أحد رأى غاندي يصرخ قبل هذا اليوم. فهذا الغاندي الصغير لم يسمع له صوت طيلة حياته. حتى حين هجم عليه اسبيرو أبو طاقية وضربه، فإنه لم يفتح فمه

«المرا كذابة»، قال، وتلقى الصفعات على وجهه ومشى.

غاندي لم يفهم يومها الحادثة، كان ما يزال شاباً صغيراً، وكان يشتغل في ذلك المطعم، وينتظر اسبيرو مع المرأة، وهما يحتلّان سريره وعلّيته. غاندي لم يقترب من المرأة. كان يبقى تحت، يرفع الطاولات والكراسي ويشطف. وعندما هجم عليه اسبيرو وضربه، اختلطت الأمور عليه.

رأى المرأة نازلة. كان اسبيرو قد غادر المطعم بعد أن وضع

البيريه السوداء على صلعته، فتح الباب وبصق على الرصيف، كما كان يفعل دائماً. ورأى المرأة نازلة. كان يتكىء على الحائط ويدخن سيجارة. كانت المرأة تلبس قميص نوم شفافاً، والثديان الكبيران يتأرجحان، وهي تهبط الدرج وتمسح عينيها بيديها. اقترب منها وأمسك بالثديين، وسمع الحشرجات التي كان يستمع اليها، وهو ينتظرهما تحت والمكنسة بيده. ثم استفاق. قبل أن يستفيق رأى كل شيء صار أحمر. المرأة حمراء، والأرض حمراء، وهو أحمر. كانت تنهداتها تملأ أذنيه وتقرع فيهما. استيقظ ليجد نفسه نائماً على الكرسي، والضوء ما يزال مشتعلاً في الدكان، والأرض مليئة بالماء، ولا أحد غيره.

في اليوم التالي جاء اسبيرو وضربه. لم يقل لماذا يضربه، صفعه على وجهه ولم يصعد لفوق عند الستّ. غاندي لم يصرخ أو يفتح فمه، قرّر أن يترك المطعم، وتركه

أما في ذلك اليوم، عندما كان في المستشفى فقد ارتفع صراخه. كان يصرخ كأنه يعوي. فخرج الدكتور عاطف مهرولاً.

«شوفي يا زينة».

أشارت الممرضة إلى غاندي.

«دخيلك يا حكيم، انا بعرضك، أنا عم موت».

«فوت، فوت»، قال الحكيم، «بس بلا صريخ».

أمسك ابنته وجرّها إلى داخل غرفة المعاينة. كان في الغرفة ثلاث نساء. أخذ الحكيم غاندي إلى غرفة جانبية.

«انتظرني ثلاث دقائق، ثلاث دقائق بكون عندك».

انتـظر غانـدي، وانتظرت سعـاد. أدخلها الـطبيب إلى غرفـة المعاينة.

«شو القصة». سأل الطبيب.

«افحصها، دخيلك، اختفت ثلاث أيام، دخيلك راح شرفي، راح عرضي، بدي أعرف».

«اخرس»، قال الطبيب.

أخذ البنت وأجلسها على كرسي وشمّر لها عن فخذيها.

«اطلع بره»، قال الحكيم.

«لا، ما بطلع، بدي شوف».

فحصها الحكيم لمدة ثوانٍ قليلة، التفت إلى غاندي.

«مبروك يا شيخ. شرفك مصان، البنت بعدها بنت».

الفتاة لم تفتح فمها، كانت غائبة عن الوعي.

«هلق خبرني القصة»، قال الدكتور عاطف.

وأخبره غاندي، «الدوا مقطوع. لازم كل يوم تاخذ منه أربع حبات، بتعرف الحالة، والدوا انقطع».

أخذ الطبيب الورقة وقرأ«Sordinol». بسيطة قال، وكتب لها وصفة جديدة، وقال إنها ستشفى بإذن الله.

البنت لم تتحسن. تأخذ الحبـوب وتدخـل فيها يشبـه السبات العميق. تبدو كالمنوّمة مغناطيسياً. الشخص الوحيد الذي كانت تحكي معه، هو أبو سعيد المنلا. كان يجلس أمام دكانه ويدعوها لشرب اللبن،

يركض إلى دكان ملكو ويشتري لها قنينة اللبن، ويقول لها «يا مباركة». تقف سعاد طويلاً أمام دكانه، وهو يحكي معها، وينتظر إشارة. قال أبو سعيد المنلا إنه ينتظر إشارة من هذه البنت. «هؤلاء هم الذين، هم الذين». وحين كان ملكو السرياني يسأله ماذا يقول، كان أبو سعيد يقول إنه لا يفهم، هؤلاء هم الذين باركهم الله، وأخذهم إلى حيث يرون ما لا نرى. نحن لا نرى. ويروي أبو سعيد نظريّته عن بيروت. بيروت جزيرة، كان يقول. جزيرة نائمة في البحر، نائمة فوق حيوان مخيف، كل سبعين سنة يتحرك الحيوان وتنقلب المدينة، وكلما انقلبت، كلما اقترب يوم النهاية. سبع مرات انقلب الحيوان فانقلبت المدينة. ونحن اليوم في انقلابها الثامن. يقول أبو سعيد إن مهران أفندي التركي، هو الذي أخبره هذه الحكايات، عندما كان صغيراً. ومهران أفندي هو التركي الوحيد الذي رفض مغادرة بيروت، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. كان عاشقاً. جاء مشياً من قناة السويس إلى بيروت، ليكتشف أن حبيبته تزوّجت. بقي في بيروت وقرّر أن ينتظرها، ثم صار ابن بيروت. بيروت تجعل الجميع أبناء لها. مهران أفندي، الذي تحوّل إلى متعهّد شحن، هو أول من تنبّأ بالكارثة. كان يقول إن بيروت هي حيوان بحري، تعشقها كما تعشق الحيوانات. مدينة بلا تاريخ. تنقلب. تاريخها أنها تنقلب على بطنها وتدحرج كل شيء.

أبو سعيد اقتنع. كانت قصص مهران أفندي مقنعة. يذكره

جالساً على الكرسي في حديقة منـزلهم، ووالده يـرحب به بكلمـات تركية، والتركي يروي حكايات الحرب العالمية الأولى، وكيف انكسر الأتراك في قناة السويس وتشرّدوا في البراري، وكيف هرب وحـده، عابراً صحراء سيناء وفلسطين إلى لبنان، ليبقى فيه ويموت فيـه، ولا يتزوج. مات مهران أفندي قبـل أن ينقلب الحيوان البحـري ويقتل الجميع.

عنـدما انقلب الحيـوان في ذلك الصبـاح، وسمـع أبـو سعيـد الطلقات وهي تخترق السنبك، أطلّ من شرفته، رأى السنبك راكعاً، وغاندي ملفوفاً بأوراق الصحف، والمطر ينهمـر خفيفاً، صـرخ «الله أكبر». يومها يذكر الجميع أن المدينة امتلأت بصراخ يجرح الفضـاء. وأن المباركة كانت تمشي إلى جانب أمها، كأنها غريبتان عن هذا العالم. مشتا ولم تتوقفا أمام جثة غاندي الصغير، وكان اللون الأسود يغطي كل شيء. المدينة كانت سوداء، وأحذية الجنود الاسرائيليين في كل مكان.

فوزية وابنتها المجنونة، مشتا إلى «مشتى حسن»، هكذا قالت أليس. قالت أليس إنها تعتقد أن المرأتين ذهبتا إلى هناك. أما حصن فلم يشاهده أحد. بحثت أليس عنه طويلاً، لكنه اختفى. المعلم أحمد، صاحب صالون الحلاقة قال لأليس إنه لم يره منذ ذلك الصباح. قـال إن الفتى كان ينام كل ليلة في الصالون. قال المعلم أحمـد إنه لم يأتِ إلى الشغل في ذلك الصباح، تغيّب سبعة أيام، وحين عاد وجد الزجاج متناثراً ولم يجد حصن.

أليس تقول إن حصن مات. ذهب إلى الحرب ومات. ألم تسمع الموت، قالت لي. كل الشباب راحوا إلى الموت. كانوا يضربون قذائف «ال ب ٧» ويصرخون الله أكبر، ويموتون. يومها مات الجميع. وأنا وحدي أخذته، أخذت غاندي إلى القبر ورجعت إلى الفندق. كلهم ماتوا، المنلا أصيب ولن يقوم منها، والسرياني قال إنه سيهاجر، وحصن اختفى.

كانت يداه صغيرتين، أصابعه ناشفة وحالكة السمرة. اليدان والأصابع مليئة بالبقع السوداء المتداخلة، كأنها قطع من الجلد الملصقة فوق بعضها. لم يكن غاندي الصغير منزعجاً من ألوان يديه، كان يعرف أن هذه هي شروط المهنة، وأنه حين حمل الصندوق، اختار عالم البويا الذي يلوّن الأحذية والأيدي والرصيف. كان الصندوق خشبياً وعادياً. لسان مرتفع كي يضع الزبون حذاءه فوقه، وفجوات مخصّصة لعلب البويا، وفرشاة حلاقة يستخدمها لغسل الحذاء بالصابون، وفرشاة أسنان من أجل أطراف الحذاء، وفرشاتان للتلميع، وخرقة سوداء سميكة. لم يختر غاندي هذه المهنة، جاءته كأنها كانت تنتظره. بعد أن ترك المطعم، لم يجد أمامه غير اقتناء صندوق. ذهب إلى نجّار في «النبعة»، كان متخصّصاً في صناعة التوابيت، وطلب منه أن يصنع له صندوقاً. حمل الصندوق ومشى من «النبعة» إلى «الحمرا». وجلس أمام مطعم «جرجورة»، ثم تحول فيما بعد إلى أمام مطعم «فيصل». لم يسأله أحد لماذا يجلس هنا. بائع الصحف نعيم نصّار، رحب به كأنه كان ينتظره. كان نعيم نصار يبيع الصحف منذ عشرين سنة، في هذا المكان. يفرش الصحف والمجلات على الرصيف، يتفنّن في تلبيق الألوان، ويجلس على كرسي صغير أمام بسطته، ولا يتوقّف عن التدخين. يعرف كل الأحداث، فهو يبيع الصحف منذ صغره. وابنه

سوف يبيع الصحف، يقرأ كل شيء، وينصح الزبائن ماذا يشترون. نعيم نصار رحّب بغاندي، يومها لم يكن إسمه قد صار غاندي، كان عبد الكريم. كان عبد الكريم يجلس خلف صندوقه كأنه ملتصق به. لا يرفع رأسه إلى الأعلى، حتى عندما يقبض ثمن مسحة الحذاء. كأنه كهل، كانت لحية غاندي الصغير، الناعمة، تبدو كبقع سوداء على وجهه الحادّ السمرة، وكان يلبس بذلة سوداء صيفاً وشتاء. يجلس كأنه طفل أوشيخ. فهذه المهنة لا تصاقب غير الأطفال أو الشيوخ. وغاندي لم يغيّر في قوانين المهنة، فكان ينحني كالشيخ فوق الأحذية. ثم حين يحمل صندوقه ويقرّر العودة إلى غرفته في النبعة، كان يهرول كالأولاد.

القسيس أمين كان أول من لفته إلى اتساخ يديه، ونصحه بتنظيفهما بواسطة الكاز. غاندي لم يستخدم الكاز. ترك البويا تتراكم فوق يديه، فصارت يداه وهما تحيطان بالحذاء كأنهما جزء منه.

والأحذية لا تنتهي. كان غاندي يعرف أخلاق الرجل من حذائه. فالحذاء المهترىء هو علامة اللامبالاة، والحذاء الجديد دائماً، هو علامة الخوف. والحذاء غير المبكل بعناية هو علامة القوة الجنسيّة، والحذاء المحكوف هو علامة الجنون. وإلى آخره، من الأخبار التي كان يرويها للدكتور الاميركاني جون دايفيز، الذي كان معجباً بقدرة غاندي على صبغ الأحذية، والجلوس لساعات طويلة منحنياً فوق يديه، دون أن يتعب.

الذي كان يستولي على عقل غاندي، هو المرآة، كان يريد أن

يجعل الحذاء مرآة. وكانت متعته الكبرى هي الأحذية السوداء. فالأحذية البنية مهما التمعت، فإنها لا تصير مرايا. أما الحذاء الأسود فإنه ينصقل، ويصبح قطعة واحدة، فبعد أن تضع فوقه البويا السوداء، يصير واحداً كأنه مصبوب بالأسود. ومع ضربة الفرشاة الأولى يبدأ الالتماع الذي يفتحه، يصير الأسود مفتوحاً على العالم، ويرى غاندي تقاسيم وجهه على صفحة الحذاء. العالم يدخل في الحذاء، والرجل الواقف، والذي يكون في الغالب ممسكاً بجريدة يقرأها، لا يعرف أهمّية ما يجري فوق حذائه. وحده غاندي كان يعرف، وكان يعرف أن الأشياء كلها، البنايات والوجوه، ومياه الشوارع المتجمعة، والرصيف، كلها تدخل في الحذاء، وتحيله إلى عالم جديد يولد.

كان غاندي يكره الأحذية ذات اللونين تلك الموضة التي درجت في أواخر الخمسينات، فصار الحذاء أبيض في أطرافه، ووسطه مبقّع باللون البنيّ. صباغة الأحذية البيضاء كانت مزعجة. ففيها لا يستخدم البويا التي تلبس الجلد، بل صباغاً مائياً كان عليه أن يلتقطه من القنينة الطويلة بما يشبه القطن. شاشة بيضاء مربعة، وفوقها يندلق السائل الأبيض، وغاندي يضعها فوق الحذاء، كأنه يعالج جريحاً، وهذا لا ينتج سوى حذاء مغطى باللون، أما الصباغة فهي شيء آخر. الصباغة تعيد صياغة الحذاء ولا تغطّيه. اللون الأبيض يغطّي. وسكربينات النساء ذات الرؤوس الحادة كانت مستحيلة. فالرأس الحادّ يمنعك من أن تجعل اللون مستديراً فوقها. فتبقى السكربينة شبه مغطّاة باللون،

حتى وإن كانت سوداء. الشغل الحقيقي هو الحذاء الأسود، حيث تطلع رائحة الجلد، «الشيفرو»، أو «البوكس»، كان غاندي يفضل «البوكس»، مع أن «الشيفرو» أكثر طراوة. في «البوكس» يتحول الحذاء إلى مرآة حقيقية، وتتحول المدينة إلى حذاء.

كان حين ينتهي من الأحذية التي ترسل إليه، يسندها إلى الحائط، ويراقب من خلالها أقدام الناس الذين يمشون في الشارع. وعندما يأتي الزبون كي يأخذ حذاءه، كان غاندي يطلب منه أن ينظر جيداً، وأن يرى وجهه.

مرة زعل القسيس أمين. وكان هذا في بداية صداقتهما الطويلة، طلب منه غاندي أن يرى وجهه في الحذاء، فاعتقد القسيس أن البويجي القصير يتمسخر عليه، نظر القسيس باستعلاء وذهب دون أن يدفع.

قال لغاندي في اليوم التالي إنه نسي أن يدفع لأنه نرفز منه.

غاندي رفض أن يقبض، وقال إنه نسي المسألة، وأنه أراد أن يبرهن للقسيس أن كل شيء يمكن أن يتحول إلى مرآة. ومن يومها صار القسيس أمين صديقاً لغاندي، واقتنع أن كل شيء يمكن أن يتحول إلى مرآة.

قال لمدام ليليان، قال لها إن عينيها هي مرآة العالم، ولم يطلب منها أن تطير. لكنها امرأة مجنونة، ماذا تستطيع أن تطلب من امرأة مجنونة؟

القسيس أمين لا يعرف كيف طلب منها أن تطير. رأى صوته يخرج من جوفه ثخيناً ورخيماً، كأنه ليس صوته.

«طيري، طيري».

وصار يشير بيديه الاثنتين كأنه مروحة.

كان يغمره شوق خارق إلى القفز. عندما أوقفها أمام النافذة بعد أن أطفأ الضوء، وقف خلفها وصار كالمروحة. فتح النافذة وحاول أن يدفشها كي تطير. خافت المرأة وارتمت على الأرض وبدأت تبكي.

«كل شيء مرآة»، قال أمين لغاندي، وهو يراه منحنياً فوق الحذاء، كأنه يريد أن يبتلع العالم.

«والله مراية، الله مراية بس الانسان بيرفض يشوف وجهه. الله وجهه، والانسان بخاف».

مدام ليليان خافت وبدأت تبكي. وغاندي قال لفوزية عندما تزوجها، إنه لا يحب هذه المهنة. يحب الحذاء وهو يرتجف بالأضواء، لكنه لا يحب المهنة، ويفضل أن يتركها. وعندما جاء الكلب، ترك المهنة وفتح مطعمه الخاص.

كانت فوزية لا تحكي، توافق ولا تقول شيئاً. تنجب الأولاد والأولاد يموتون. جاء حصن وعاش، وبعده عاشت سعاد، ورجعت فوزية إلى حكاية الموت. يولد الطفل ميتاً أو يموت بعد الولادة مباشرة.

داخ غاندي من الحزن، أخذها عند جميع أطباء الجامعة الأميركية، الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم. أعطوها أدوية ومقويات، كان يصرف كل مدخوله على الأدوية. وفي زيارته الأخيرة للدكتور

نسيب سليمان، نصحه الحكيم بالتوقّف عن الحمل. كانت فوزية جالسة ورأسها إلى الأرض والطبيب يتكلم مع غاندي، ويقول إنه لا يجوز، المرأة ممكن أن تموت. عليك بالتوقف عن الحمل.

هزّ غاندي رأسه موافقاً، وقال للطبيب أن أفضل شيء هو الطلاق. فهو حاول جميع الطرق التي يعرفها، لكن فوزية تحبل، بمجرد أن يقترب منها تحبل. وهو لم يعد يحتمل هذه الحالة.

«إشتري كبوت»، قال الحكيم.

«لشو الكبوت»، سأل غاندي.

«اشتري كبوت، ونام معها، وانت بتعرف».

«طبعاً بعرف»، قال غاندي.

خرجا من عند الطبيب. ذهبت فوزية إلى البيت، وذهب غاندي إلى «سوق سرسق»، حيث اشترى معطفاً من الجوخ السميك وعاد إلى البيت، ونام مع فوزية.

عندما يروي غاندي حكاية الكبوت، تدمع عيناه، ويغرق في الضحك. يضع يديه على عينيه ويهز رأسه إلى الأسفل، كأنه يريد إيقاف الضحك.

«كنت مجدوب. الكبوت علّمني صير محتال، ولولا أني محتال، كيف فكرك بقدر عيش. شو عيشة هي هالعيشة. قاعدين ننطر والناطر

مارح يوصل لمطرح. مطرحه الوحيد هو القبر. بس الحياة غير شكل. المهم يا سيدنا اشترينا الكبوت الجوخ ورحنا على البيت وصرنا ننام مع المرا والكبوت فوقنا. والعرق يزرزب. وأنا راح اختنق، وهي عم تموت. تكون تحتي وما توقف: يالله، يا كريم، يا معين، وأنا قول معها، والعرق متل الشتي. قلت، معليش، هيك أفضل من أنه المرا تموت. وبعدين اكتشفت أنها حبلى. كبوت دفعت حقه ست ليرات. بتعرف شو يعني ست ليرات. يعني متل شي ألفين ليرة هلق، وبكرا بصيرو قد شي مية ألف، شو بعرفني. دفعنا وغرقنا بالعرق وحبلت المرا، وصرت متل المجنون».

«رحت عند الدكتور نسيب وقلت له. فقع من الضحك، ضلّ يضحك حتى كان مات. قرفص بالأرض وصار يضحك، وأنا صرت أضحك. إذا ضحك الحكيم فالمريض لازم يضحك، مش هيك، وأنا مش مريض».

كان الدكتور نسيب يتوقع كل شيء إلا هذه الحكاية. خرج من عيادته، وذهب ونادى بقية الأطباء. الجميع يضحكون وغاندي يضحك معهم. ثم شعر أنه محاصر، شعر أنه قطّ محاصر وسط مجموعة من الأولاد الشرسين، أغمض عينيه وبدأ يلهث، انتبه الدكتور نسيب، فغيّر الموضوع. وصار يحكي باللغة الانكليزية. وبعد أن خرج الجميع، وبقي غاندي وحده معه، قال الطبيب:

«بتروح على الفرمشية، فرمشية «هيليوبوليس»، وبتشتري من هونيك كبوت».

وشرح له مزايا الكبوت.

«يومها فهمت»، قال غاندي. «الحياة متل الكبوت، يا بتستعمل الكبوت، يابتصير كبوت وغيرك بيستعملك، أنا كنت كبوت وبطلت، وصرت محتال، رحت عند الصيدلي واشتريت ست كبابيت بخمس فرنكات. بس هي ما قبلت، بعدين قبلت، النسوان بتقبل، وقالت منتوكل على الله، وتوكلنا على الله».

عندما تزوج غاندي الصغير ابنة عمه فوزية، كان لا يعرف غير التوكل على الله. حكاية هربه ما كانت لتتم لولا التوكل. الجميع قالوا إن الولد مات. قالوا في «مشتى حسن» إن الوحش قتل ابنه. لكن حصن الوالد، كان يعرف أن الولد لم يمت. قال لزوجاته وبناته إن الولد لم يمت. جمعهن حول سريره، وهو في لحظاته الأخيرة، وقال لهن إن الولد لم يمت. قال إنه رآه مرة في بيروت، وإن عبد الكريم أعطاه خمس ليرات كي يرجع بالسيارة إلى الضيعة، وإنه يريد ابنه، وإنه لا يريد أن يموت. صار يصرخ أنه لا يريد أن يموت، والشيخ زكريا يقف فوق رأسه يلقنه وهو يرفض أن يردّد، ثم بدأ حنكه الأسفل يرتجف واختفى صوته والشيخ زكريا يقول: «يا حصن ابن نجيبة، إذا جاءك الملاكان فقل لهما الله ربي ومحمد شفيعي والاسلام ديني إلى يوم القيامة». وحصن ابن عبد الكريم أحمد المغايري، يترنح تحت كلمات الشيخ زكريا ويموت.

وبعد الدفن عاد عبد الكريم مرة واحـدة إلى القريـة ليتزوج. وتزوج فوزية ابنة عمه بيّاع الترمس. أجلسوهـا وأجلسوه، كـان هو ببذلته الجديدة السوداء، وهي تلبس شلحة بيضاء، والناس حـولهم يصفقون. امرأة أبيه الثانية كانت تعصر الليمـون وتعد الليمـوناضـة وتوزع الأكواب. وفوزية جالسة على الحجر المستدير، وهويجلس قبالتها بانتظار الشيخ زكريا. أتى الشيخ فصفق الجميع وبدأ الحداء والرقص. ثم رفع الشيخ يده، وقال للعروس، سألها فقالت:

«أنـا قاعـدي على الحجـر، واسمع يـا رب القدر، أنـا بحب هالدكر، على سنة الله ورسوله».

طلب منها أن تعيد، فأعادت الجملة ثلاث مرات. اقترب منها الشيخ زكريا ووضع في يدها كمشة قمح.

التفت إلى عبد الكريم، فقال الرجل الصغير:

«أنا قاعد على الوطاه، واسمع يا رب الاله، أنا بحب هالفتاه، على سنة الله ورسوله».

وطلب منه أن يعيد، فأعاد الجملة ثلاث مرات. ثم طلب من فـوزية أن تقـوم، فقامت، ورشت القمـح على رأس عبـد الكريم، وارتفعت زغردة واحدة.

أخذها غاندي، وركبا سيارة أجرة وعاد إلى بيروت. لم يتحمّم كما هي العادة، ولم يأخذها إلى بيت أبيه حيث سينتظر الناس الشرشف

الأبيض والبقعة الحمراء في وسطه. كان كالغريب في قريته. قبل قصة الحجر لأن بياع الترمس أصرّ عليها. كتبا العقد في بيروت، وكان غاندي يريد أن يتزوجها دون العودة إلى القرية، لكن بيّاع الترمس أصرّ:

«الزواج لازمه حجر يا ابني. الانسان وقت بيموت بحط راسه على الحجر، ووقت بيتزوج بيقعد المرأة على الحجر، وإلا ما بصير، الزواج ما بصير بلا حجر».

غاندي وافق. واشترى مرآة وفستانين وسكربينة ومكنسة، وحمل معه إلى القرية عشرين كيلو ليمون حامض، وعشرة كيلو سكر. وعندما انتهى كل شيء أخذ فوزية إلى البيت الصغير في «النبعة»، الذي سيتحول مطعماً. كان ذلك عام ١٩٣٨، وكانت طرقات «النبعة» ترابية، ولم يكن هناك لا ماء ولا كهرباء. انزعجت فوزية في البداية، قالت إنها تكره الأرمن ثم صارت تحبهم وتعوّدت على كل شيء. وعندما ترك غاندي «النبعة» في بداية عام ١٩٧٦،هرباً من القصف والحرب، سكن في أسفل بناية «برج السلام» في«الحمرا»، صارت فوزية لا تتحسّر إلا على«النبعة». تقول إنها تكره الحمرا ، وتشعر أنها تعيش في قفص.

«كلامك هو السبب»، قال لها غاندي. «لولا هالحكي ما هربت البنت».

«البنت هربت لأنه ما عاد في دوا، وأنت بتعرف»، قالت الزوجة.

وعندما عادت البنت، واكتشف غاندي أنها مازالت عذراء، شعر أن حيلته انتهت. كان هروب البنت هو حيلته الأخيرة، فعل كل شيء، لكنها لم تتحسن. كانت تهزل حتى صارت متل الخيط، ولا تتكلم.

كيف بدأ مرض سعاد؟

غاندي لا يعرف، وفوزية لا تعرف، غاندي لا يذكر أن ابنته كانت تشكو من شيء. كانت فتاة ككل الفتيات. عندما يحاول غاندي أن يتذكر طفولة البنت كما طلب منه الطبيب، فإنه لا يرى أمامه غير الفجوات.

«والله ما يتذكر يا حكيم. بلى راحت على المدرسة، بس شِلْتها، لأنها بنت، صار عمرها ١٢ سنة وقلت يكفي. وحطيتها عند أم جميل الخياطة، درست الخياطة والتفصيل، ويا عيني ما أحلاها، صارت تعرف كل شيء وتمام».

«وبعدين»، يسأل الطبيب.

«بعدين شو بعدين، بعدين ما في بعدين يا حكيم، يعني صارت هيك».

«كيف هيك»، يسأل الطبيب.

«صارت تصفن، وما تاكل، ما في ليلة وعيت وكانت نايمة، تبقى قاعدة على فرشتها، ومبرزقة عيونها، كأنها شايفة إشيا نحن ما منشوفها».

«وشو بتقول».

«مين»، سأل غاندي.

«هي، شو كانت تقول»، قال الطبيب.

«كنت أقعد حدها، أوعى بالليل ولاقيها مش نايمة، اقعد حدها، واحكي معها، وما أفهم، كانت تحكي بس كأني ما افهم، كأنها ما كانت عم تحكي معي كأنها عم تحكي مع حدن تاني».

«وقبل هيك»، يسأل الحكيم.

«ما في قبل»، يجاوب غاندي. «هي بتعرف إنها مريضة، مرات بتقول لي إنها مريضة، وبفتكر إنه خلص مشي الحال، بس بترجع».

«يعني الحرب»، يسأل الطبيب.

يحاول غاندي أن يتذكر. لم يحصل شيء، الحرب حصلت في كل مكان، البنت قبل الحرب، قبل ١٣ نيسان ١٩٧٥، وقبل الحصار في «النبعة»، وقبل التهجير والشرشحة. غاندي لم يُهَجّر ولم يتشرشح، قال لفوزية إنه فهم كل شيء، قال لها إنهم سيطردون الفلسطينيين والمسلمين وسيقتلونهم، قال لها أن تمشي معه. أخذها مع الولدين وذهبا إلى راس بيروت. وهناك وجد غرفة صغيرة في حي «الوتوات». ثم انتقل إلى أسفل البناية بفضل الزيلع، وبقي هنا. لم يعش الشرشحة والتهجير، غاندي يعرف، هو صار يعرف، وهرب بحيلة. دفع للأرمني وقال له إنه يريد أن يذهب إلى بيروت الغربية. الأرمني لم يذهب

معهم. أخذتهم ابنته «نافير» إلى بيروت الغربية. قادت السيارة، وياما شاء الله، كانت «نافير» بيضاء وناصعة مثل الشراشف. جاءت في الصباح الباكر، وقالت لهم أن يتبعوها. تبعوها إلى السيارة، رفضت أن يأخذوا أيّ شيء.

«كله بالأرض، ما منقدر ناخد شي معنا»، قالت «نافير».

ترك غاندي كل الأشياء ما عدا الصندوق، حاولت أن ترفض، ترك المرآة والمكنسة والفراش، وكل جهاز العروس.

«الصندوق لا»، قال غاندي. «مستحيل، هيدا باب الرزق».

أركبتهم، غاندي إلى جانبها والصندوق بين يديه، وفوزية وسعاد وحصن في المقعد الخلفي، في سيارة «الشيفروليه» الكبيرة، السوداء. ولم تقف على أي حاجز. كان المسلحون عندما يرون «نافير»، يفتحون لها الطريق، كأنها مسحة رسول. وسعاد تجلس إلى جانب أمها كأنها لا ترى ولا تسمع.

سعاد هكذا، لا ترى ولا تسمع.

حاول غاندي أن يروي حكايتها للطبيب، لكنه تذكر أن الأطباء يضحكون على الناس. تذكر طبيب الكبوت وحكاية الفرمشاني. قال لأليس إنه ذهب عند الفرمشاني في صيدلية «هيليوبوليس»، واشترى كبابيت بخمسة فرنكات، كما قال له الطبيب. أمسك غاندي بملفّ الكبابيت وسأل الفرمشاني عن كيفية إستعمالها. كشر الرجل العجوز

عن أسنانه وقال له، وهو يستخدم إصبعه بشكل بذيء إنها توضع هنا. فتح الملف، أخذ كبوتاً ونفخه، وقال لغاندي خذه، أمسكه غاندي ثم رماه أرضاً، وخرج من الصيدلية، وضحكات الرجل ترنّ في أذنيه.

كان غاندي عاجزاً عن حلّ المشكلة. بعد فشل الأطباء، وبعد أن صارت البنت كالبلهاء التي لا تعرف ماذا يجري حولها. وافق غاندي على اقتراح فوزية، فأخذ البنت وذهب بها إلى القرية، وهناك التقى الشيخ زكريا، وهو غير الشيخ زكريا الذي زوّجه ودفن والده. إنه قريب زكريا الأول. ويشبهه في كل شيء. التنحنح، الأصابع الغليظة، والحاجبين الأبيضين. قال الشيخ زكريا، بعد أن وضع يده على رأس البنت:

«لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. أنا لا أستطيع يا ابني، البنت راكبها عفريت شرير، وأنا لا أستطيع».

ونصحه أن يأخذها عند الشيخ حسن العلواني، في مدينة حماه. ذهب غاندي إلى حمص عند إحدى شقيقاته، وهناك دبرت له أخته سيارة أجرة إلى حماه، للقاء الشيخ حسن العلواني. والذي لا يعرف الشيخ حسن العلواني، لا يعرف شيئاً. رجل ولا كل الرجال. «إي والله، ولا كل الرجال»، قال غاندي. «يا عيني، وداعة وصوت رخيم وجلسة هادية وأدعية»، تدخل إليه كأنك داخل إلى العالم الآخرة، وهو هناك. يجلس في صدر القاعة، وحوله ثلاثة مواقد مشتعلة بالحطب

الأمر، ورجال ونساء وأدعية. عندما دخل غاندي إليه، ومعه سعاد، سمعا صوتاً يأمرهما بالركوع، ركعا. حاول غاندي أن يقف بعد أن بدأت ركبتاه بالتنمل، لكنه سمع الأمر نفسه، فركع من جديد. وبقيا راكعين حوالي ساعة، وحولهما راكعون كثيرون، الشيخ حسن العلواني جالس لا يتحرك، كأنه حجر.

سمع عبد الكريم الأمر بالتقدم. سمع الصوت: «عبد الكريم بن حصن بن عبد الكريم». لم يكن قد أعطى اسمه لأحد، دخل إلى الشيخ مع كل الداخلين، وركع مثلهم، ولم يقل لأحد لا اسمه ولا مطلبه. عندما دخل وضع أحدهم غطاء على رأس البنت.

نهض عبد الكريم عندما سمع اسمه، وأخذ يد ابنته وتقدما.

«لا، لا، سعاد تبقى في مكانها»، قال الصوت.

أعاد ابنته إلى مكانها وأمرها بالركوع، لم تقل البنت شيئاً، ركعت كما كانت، وتقدم غاندي.

«خذ»، قال الصوت. وأعطاه ثلاث أوراق، مقفلة بما يشبه الشمع.

«الورقة الأولى بياكلها الكلب»، قال الصوت.

«نعم»، جاوب غاندي.

«ما تحكي، اسكت»، قال أحدهم.

«الورقة الثانية تضعها في قبر مهجور».

أحنى غاندي رأسه، ولم يتكلم.

«الورقة الثالثة تغليها بماء ساخن، وتسقي منها البنت، وستشفى بإذن الله».

حاول غاندي أن يدنو من الشيخ حسن العلواني، ويقبّل يده، لكن رجلاً واقفاً حدّ الشيخ منعه، وأمره بـأخذ ابنتـه والخروج. وفي الخارج دفع عشرين ليرة ومضى.

أخذ الورقات الثلاث وفعل ما طلب منه. أطعم الورقة الأولى للكلب بعد أن مزجها بقطع من اللحم، وزرع الثانية في قبر مهجور في بيروت، وغلى الثالثة وسقى ماءها لسعاد. لكن سعاد لم تشفَ. كان غاندي متأكـداً أنها شفيت، لكنها لم تشفَ. عادت كما كانت بل أسوأ مما كانت، صارت تنهـض في الليل من فراشها، تمشي وتهذي، تقول كلاماً لا يفهمه أحد، كأنها تريد أن تقتل نفسها. وفي إحدى الليالي حاولت أن تقتل أمها. نهض غاندي من النوم على صراخ فوزية، فرأى البنت واقفة أمام فرشة أمها، وفوزية تولول وتقول إن سعاد حاولت خنقها. ومن يومها ضاع غاندي، لم يعد يعرف شيئاً. أبو سعيد المنلا هو الذي نصحه بالشيخ طيّار.

أخذ غاندي ابنته وذهب إلى طرطوس. وهناك وجد الشيخ طيّار جالساً في غرفة سوداء قرب شاطىء البحـر. كان الشيـخ طيّار وحيداً، لا مواقد ولا نار ولا شيء. دخل غاندي والبنت وجلسا على أرائك مفروشة على الأرض. وكان الشيخ جالساً على كرسي، ومسبحته البيضاء، التي تشبه لحيته الخفيفة متدلية من يده.

سأل الشيخ طيّار غاندي الصغير عن حكايته، واستمع إليـه،

وسأله عن تفاصيلٍ صغيرة، كان الرجل الصغير لا يعرف كيف يجاوب عليها. سأل كثيراً عن ولادة البنت، عن عينيها عندما ولدت، هل كانت مغمضة أم مفتحة. وغاندي لا يعرف. جاوب بشكل تقريبي، وقال إنه لا يعرف بالضبط، واقترح على الشيخ أن يجلب زوجته معه.

«ما في لزوم، ما في لزوم، أنا بعرف»، قال الشيخ.

نظر الشيخ إلى عيني الفتاة الزائغتين وسأل غاندي.

«بتجيب سيرته».

«مين هو يا مولانا»، سأل غاندي.

«الملك»، قال الشيخ.. «بتحكي عن الملك أو بتقول اسامي انت ما بتعرفها».

«لا»، قال غاندي. «ما بفتكر، أنا ما سمعت اسم الملك ولا مرة».

«اذن بسيطة»، قال الشيخ بصوت هادىء. «بسيطة، البنت لا شرّ فيها أو عليها، تحتاج الى الدم. لازم يتسيّل دمها، لازم يمتزج دمها بدم رجال، لازم رجال يسكب دمها. زوّجها، في أول ليلة بتشفى، الدم يشفي، قم يا رجل، خذ ابنتك وزوّجها، وبتشفى».

قام غاندي وأخذ ابنته الى بيروت. فوزية هي التي نصحته بابن عمها في طرابلس.

«ما إلنا غيره، هيدا متل اخي، وراح يقبل».

ذهب غاندي الى طرابلس. وصل الى المدينة ليلاً، فلم ير شيئاً، ولم يتذكر، ولم يشعر بحنين الى فرن المعلم رشيد الذي يشبه المفتاح. وجد بيت ابن عم زوجته دون عذاب، فالبيت في «باب التبانة»، وهو

فوق فرن «العرب». وصل الى الفرن وصعد الى الطابق الثالث، وقرع على الباب. غاندي لم يكن قد رأى هذا الرجل الذي سيصبح صهره، إلا مرة واحدة في حياته، لكن «الضرورات تبيح المحظورات»، قالت فوزية. قرع على الباب وهو يشعر بالمرارة في حلقه.

«هون بيت حسن البكّار»، سأل غانـدي المرأة التي شقت لـه الباب.

«تفضل»، قالت المرأة، وفتحت الباب.

دخل، احتضنه حسن البكّار، الذي كان جالساً وحوله أولاده الثمانية، يتناولون العشاء. دعوه إلى العشاء، فمد يده، وأكل لقمـة واحدة.

حسن البكّار أبدى تعجّبه منِ هذه الزيارة المفاجئة.

«خير يا ابن عمي»، سأل.

«كل الخير»، قال غاندي. «ما في شي، زيارة».

«أهلاً وسهلاً»، قال الرجل وهو يمضغ طعامه.

وبعد انتهاء العشاء، دارت كؤوس الشاي، وفتحوا التلفزيون، وامتلأ البيت بالضجيج.

اقترب غاندي من حسن البكّار، وقال له بصوت منخفض عن غايته.

«أنا أتزوج»، رفع الرجل صوته. فالتفتت المرأة صوبهـا وعلى وجهها علامات الهلع.

شرح له غاندي أن المسألة شكلية. «طلقها، يا أخي طلقها بعد يومين، بس هيك قال الشيخ الطيّار».

«أنا أتزوج واحدة مجنونة؟»

«مش مجنونة، يا ابن عمي، مش مجنونة، هيدي بلوى من الله. والبنت لازم تشفى، خدها بلا مهر وبلا شي، وطلّقها».

قال الرجل إنه لا يرضى، وبدأت امرأته تصرخ.

«لاحقينا لهون، النسوان لاحقيني على البيت».

وصارح هرج ومرج، وأولاد يزعقون.

قام غاندي، لم يقل له ابن عم زوجته أن يبيت ليلته عندهم. تركه يمشي، وكانت الساعة العاشرة ليلاً، وكيف سيعود إلى بيروت والدنيا برد.

«تركني ابن الكلب، أمشي من بيته»، قال غاندي لزوجته. «تفو الفرايب عقارب، هيك كانت تقول خالتي خديجة الله يرحمها».

والفتاة لم تتزوج، وصارت حالتها أكثر سوءاً. غاندي لم يخبر الدكتور نسيب كل هذا، أخبره فقط أن البنت لا تأكل ولا تنام، وانها تهلوس، وأنه عندما يزوره أحدهم، تجلس على طرف المقعد وتبحلق في الزائر، وتقول انها مريضة. غاندي أخبر الطبيب أن البنت تحكي بشكل غير مفهوم، وأنه يخاف عليها أن تضيع في الطرقات.

شرح له الدكتور أن حالة البنت صعبة، ووصف لها دواء. وقال إن البنت تعاني من مرض عصبي اسمه «الشيزوفرينيا». أي انفصام الشخصية.

«شو يعني انفصال الشخصية»، سأل غاندي.

«هيدا مرض نفسي، وممكن تشفى، انت أعطيها الدوا».

«يعني منفصلة، بتشوف اتنين»، سأل غاندي.

ضحك الطبيب. «لا، لا، هيدا مرض اكتئاب وحزن، ومرات الواحد بضيع وبعدين بفوق على حاله».

يومها خاف غاندي. خاف من انفصال الشخصية، وصار يخاف من سعاد، ويراها منفصلة. صار يرى كل شيء منفصلاً. وعندما رجعت إلى البيت، بعد هربها الى النبعة، رجعت دون أن يسيل دمها، ودون أن تموت. قال للدكتور انها حسّكت لأن الدواء كان مفقوداً. وكان يعلم أن البنت ذهبت تبحث عن دمها، وأن دمها عاد اليها، وأن لا أمل.

هذه المدينة هكذا، مدينة منفصلة. كل شيء فيها يقع كما وقع «كوكب الشرق».

كان غاندي يستمع إلى الزيلع، وهو يروي كيف قتل، «الرجال يللي ما بيقتل، مش رجال»، قال الزيلع.

وغاندي يقول لأليس إنه ليس رجلاً، فهو لا يحب القتل، «بس يمكن قتلته».

«انت»، وضحكت أليس، «انت بتقتل؟»

«ايوه أنا، بس مش عارف».

غاندي لا يعرف. حين قتل ذلك الرجل الذي قتله، غاندي لا يعرف، لكنه كان هناك. كان غاندي ما يزال شاباً، في حوالي العشرين من عمره، يشتغل على صندوقه، وينزل كل سبت وأحد الى سباق الخيل، يدفع ويدفع، والأحصنة لا تفوز. كان مشهد الأحصنة هو الذي يدفعه الى الذهاب كل سبت وأحد، ودفع كل مصرياته التي

جمعها خلال الأسبوع. أحصنة لا تشبه أحصنة مقام أبو هريرة، حيث كانت تدوس الرجال، وحيث كان غاندي يرى الأقدام والظهور، ويستمع إلى صراخ النساء. هنا كان الصراخ مختلفاً، وكان غاندي يصرخ، يصرخ والى جانبه رجال لا يعرفهم، وكلهم يصرخون. كان يشعر أنه وحيد، أمام مشهد الخيول التي تتدافع، يشعر أنه يستطيع أن يقفز ويفعل ما يشاء.

وفي مأتم الياس الحلبي، دعس على الرجل وهرب.

كان ذلك منذ سنوات طويلة، لكن غاندي حين روى الحادثة للدكتور دايفيز، قال «السنة الماضية». ابتسم الأستاذ الأميركاني الطويل، وقال إن هذا حدث سنة ١٩٣٥، أي من حوالي ثلاثين سنة.

«المهم»، قال غاندي.

كان غاندي مع كل الناس، كل الناس ذهبت. يومها، تراموای بيروت الكهربائي، حاد عن سكته. كانت بيروت كلها ومشى الموكب في ساحة البرج، وتجمع الناس على الشرفات وتسلقوا الحيطان. غاندي كان على شرفة «كوكب الشرق». وفيما كان النعش يطفو فوق الرؤوس، وعبده الانكدار، وسعد الدين شاتيلا وغندور زريق، بخيزراناتهم يمشون تحت النعش، والحداء يملأ المكان. سقطت شرفة «كوكب الشرق». كان الناس صغاراً، يبدون كقامات قصيرة مهرولة تحت نعش بحجم الكف، والركض والصراخ. كان غاندي يقف وحوله خلق كثير، بينهم حسن الأطرش، الذي كان يبيع بطاقات المراهنات في سباق الخيل. مات حسن الأطرش، انبعج رأسه تحت الحجارة التي تساقطت. وغاندي ماد مع الأرض وسقط. قال إنه شعر

بأن الأشياء تدور، وأنه يقع في واد عميق. وقفت، قال إنه وقف وحاول أن يركض. الناس على الأرض، والأرض فوق الناس، ونعش الياس الحلبي يركض كأنه يهرب.

دعست عليه، قال غاندي إنه دعس على رجل «يمكن قتلته ما بعرف، يمكن، ما بعرف. بس هربت، صرت هربان متل كأني مجرم، هربان ما بعرف لوين، وضليت ماشي حتى وصلت على البيت، وبالبيت نمت، حطيت راسي على المخدة ونمت. وما عاد بدي قوم، ما عاد فيني قوم».

قال غاندي لأليس، إنه لا يعرف لماذا يحب النوم إلى هذه الدرجة. في هذه الدنيا لا تستطيع أن تفتح عينيك، إذا فتحتهما تصير الأشياء تدور. كل الأشياء لا طعم لها.

كانت أليس تعتقد أن طعم الأشياء يبقى. هي لا تستطيع أن تنسى أن الأشياء لها طعم يبقى في الفم، حتى بعد أن يذهب.

وعندما قال لها المصري إن بيروت متل الكرتون، ابتسمت عيناها.

«انت ما بتعرف شي يا أخي، شو يعني كرتون، كل العالم كرتون، بس بيروت كانت ما تنام، ولحد هلق ما بتنام. مين بيقدر ينام بمكان ما في نوم. كلكم نعسانين لأنكم بتخافوا، أنا ما بخاف، ما بنام وما بخاف».

ينظر اليها الزيلع وهو يحاول إخافتها. وأليس لا تخاف. قالت له إن الزلم ماتت، وأنه بشعره القصير مثل العسكر الأميركاني لا يخيفها.

«الزلم راحت يا ابن الزيلع، يا ابن الكلب».

وابن الزيلع يسامحها، ليس لأنه ابن الكلب، بل لأنها مسكينة. ماذا تعرف هذه المرأة عن الزلم، قبل أن يقتل الزيلع شقيقته خنقاً بيديه، كان قد قتل الكثيرين. كان الزيلع جندياً في الجيش اللبناني، وجاءت الحرب وصار مثل كل الناس.

«عندما تأتي الحرب نحارب»، قال للملازم أحمد الحسن، «يا سيدنا بدنا نعيش، بدنا نجيب تلفزيونات، بدنا مصاري، بدنا حرب».

وذهب الزيلع الى الحرب. ويوم رأى النقيب صلاح عامر يبكي كالأولاد، فهم أن الحرب سوف تستمر من دون هؤلاء الذين يتفلسفون ويتحدثون عن حرب الشعب والجماهير، هؤلاء سوف يموتون، والحرب ستستمر من دونهم. ترك الزيلع هذه التنظيمات، وذهب إلى حيث يجب أن يذهب. لم يترك تنظيماً أو عصابة إلا واشتغل معها. هرّب الحشيش وتاجر بالسلاح وصار مسؤولاً عن بار «المونتانا».

«أنا بحمي البار، من دوني شو كان صار فيكم»، قال لأليس.

«معك حق يا زيلع، من دونك كنا اشتغلنا شراميط، هلق نحن ستات ومستورين، من دونك يا ابني كان اجا غيرك».

«أنا أحسن من غيري يا مدام».

«أنت متل غيرك، انت ما خصك، انت غيرك، اسألني وأنا بخبرك، بس انت لا بتعرف تحكي ولا بتعرف تسمع».

«اخرسي وليه، إذا مش عاجبك روحي».

«مش عاجبني ورح اسكت. رح اسكت لأنه خلص الحكي، لمن الحكي بيخلص ما بعود أنا أليس يللي..»

«بعرف بعـرف، قال الزيلع، الله يخليك ما تخبرينا حكـايات الزعيم الأوحد وعبد الكريم قاسم وكل هالتجليط».

«شو بدي خبرك»، قالت أليس لغاندي.

غاندي كان يحب حسن الزيلع. «لولاه لقتلوني»، قال لها. قال غاندي إنهم أرادوا قتله لأنه يعيش في هذا القبـو أسفل بنـاية «بـرج السلام». كان القبو فارغاً عندما جاء غاندي من «النبعة» هارباً، وسكن فيه. جاء مسلحون وأمروه بمغادرة المكان. ولولا الزيلع لمات.

«الزيلع ابن حلال، بس عقله هيك. بيسكر وبيحكي شو ما كان، بس قلبه طيب».

«مفهوم»، قالت أليس، وقررت أن تسكت.

في أحد تلك الصباحات، كان غاندي الصغير يجلس وحيداً أمام علبته. يضع القوالب الحديدية على الأرض، بانتظار الأحذية. رأى الدكتور جون دايفيز قادماً من بعيد. كان الأستاذ الأميركاني يمشي، والى جانبه كلبه «الشيان لو»، كلب كبير أغبر اللون، يهمهم ويعوي. استعاذ غاندي بالله من منظره في الصباح. وقف الدكتور دايفيز أمام علبة البويا، وهو يمسك بالحبل المربوط إلى رقبة الكلب، والكلب يتحرك يميناً وشمالاً، ويشم ويقترب بفمه من القوالب، والأميركاني يشد بكلبه الى الوراء. والكلب يقترب من القوالب ويستدير باتجاه غاندي، يشم قدم الرجل الجالس، وغاندي يحاول التهرب من الكلب، يزيح قدمه، يتشاغل بالقوالب والأحذية، يمسح وجهه بكمه الأسود الطويل. الدكتور دايفيز يسأل عن الأحوال، والكلب يدور في يد سيده. ثم أفلت الكلب من يد دايفيز. ركض الكلب، ودايفيز يناديه «فوكس، فوكس»، والكلب يركض كأنه وجد شيئاً. ترك الدكتور دايفيز غاندي، ولحق بكلبه. جاءت امرأة ووضعت أمام الصندوق ثلاثة أزواج من الأحذية الرجالية السوداء. ركّبها غاندي فوق القوالب وبدأ يشتغل. كان غاندي لا يحب أن يصبغ الحذاء، إلا بعد أن يشد جلدته على القالب. أصول المهنة، كما يعتقد هو أن يصبغ الحذاء دون خلعه من القدم. القدم تعطي الحذاء شكله وتشدّه، فينتشر اللون في جميع أنحائه بشكل متساوٍ. أما حين يكون الحذاء دون قدم، فجلدته تتجعلك، وتصبح صباغته صعبة، لأن تحويله إلى مرآة يصبح مستحيلاً.

انتهى غاندي من تركيب الأحذية على القوالب، حين رأى الدكتور دايفيز راجعاً والكلب معه. يومها قدّم جون دايفيز اقتراحه، الذي سيجعل غاندي يتخلّى للمرة الأولى عن مهنته، وسيتخلى عنها للمرة الثانية والأخيرة، بناء على اقتراح حسن الزيلع، حين سيصبح مسؤولاً عن نظافة الحي.

وقف المستر دايفيز وطلب منه أن يساعده على إطعام الكلب.

«أنا ما عندي شي، عندي صبابيط»، قال غاندي.

وافق غاندي على اقتراح المستر دايفيز دون أن يخطر في باله أن هذا الاقتراح سوف يجعله يغيّر مهنته.

دخل غاندي إلى مطعم الجامعة الأميركية، وبيده كيس جنفيص كبير. قال له دايفيز إنه اتفق مع مدير المطبخ ورئيسته الأميركية، على أن يسمحوا لغاندي بأخذ بقايا الطعام كل يوم، على أن يأتيه بها إلى بيته، قرب «مستشفى البخعازي» كطعام لكلبه «فوكس»، الذي لا يشبع، كما اتفق مع غاندي أن يدفع كل يوم ليرة. وكانت يومها مسحة الحذاء بربع ليرة. أي يأخذ مقابل الكيس أجرة أربعة أزواج أحذية.

عندما دخل غاندي إلى المطبخ، فوجىء بكمية الطعام. كان الطباخ، الذي يلبس قميصاً أبيض، ويضع على رأسه قبعة طويلة بيضاء، يقوده بين أروقة المطبخ الداخلية، ويدلّه على الصحون، وغاندي يفرّغ كل شيء في كيسه. امتلأ الكيس، وما تزال كميات الطعام المعدة للمزبلة كبيرة.

أخذ الكيس الى منزل المستر دايفيز، ويومها قرّر.

في اليوم الثاني جاء ومعه كيسان. كيس للكلب وكيس له. في

الكيس الأول وضع بقايا الطعام، وفي الكيس الثاني، الذي كان محشواً بعلب السردين التنكية الفارغة، التي التقطها غاندي في الليلة الماضية ونظفتها زوجته، حاول أن يصنّف الطعام ويضعه في العلب التنكية الصغيرة، ثم يضع كل شيء بعناية في الكيس.

في اليوم الثالث، جلب، بالإضافة الى الكيسين وعلب السردين الفارغة، قنينة فارغة، حاول أن يملأها زيتاً من بقايا صحون اللبنة.

في اليوم الرابع، جاءت فوزية معه، وقامت هي بترتيب بقايا الطعام وتصنيفها، قبل وضعها في العلب التنكية.

في اليوم الخامس، انتظم العمل، واتفق مع مدير المطبخ، على أن يدفع له يومياً مبلغ ست ليرات، بعد أن رفض المدير اقتراح غاندي اقتسام الطعام معه.

في اليوم السادس، فتح مطعماً.

وفي اليوم السابع، وهو يوم عطلة مطعم الجامعة الأميركية، استراح غاندي في بيته ولم يخرج الى العمل، وكانت هذه هي المرة الأولى في حياته التي لا يخرج فيها الى العمل نهار الأحد.

وضع غاندي كراسي صغيرة، وصينيات قش أمام منزله في النبعة، وحوّل المصطبة إلى مطعم.

تلك كانت أيام، يروي غاندي. في تلك الأيام كان الخير كثيراً، كنا نأكل نحن والكلب. الكلب يشبع ونحن نشبع وكل الناس تأكل. . . «وصاروا الحوارنة يجوا، حوارنة وأكراد وخلايق، عمال باطون وشغيلة على البور ويللي بدك، يجوا كل يوم ويشتروا. صحن اللبنة بعشر قروش، وصحن الحمص بربع وصحن الكفتة بنصف

ليرة، ومشي الحال. وصار محمد الحريري، الله يرحمه، يجي ويجيب معه قنينة عرق، ويصب لحاله وللزبائن. أنا رفضت، قلت ما بصير، الحرام ما بيدخل المطعم، بس كيف فيك تقاوم الحرام والحرام في كل مكان، وصرت أنا أشرب، والمصاري معي متل التراب. هيديك كانت أيام، حتى المصلحة نسيتها، لا ما نسيتها، بطلنا القعدة كل النهار وكسرة الظهر ورا صندوق البويا. وصرت أشتغل قليل، للزبونات الخاصين. صرت آخذ الصندوق وأقعد تحت درج الست ليليان صباغة، وأتصبح بالروسية الحلوة. أصبغ لها وللقسيس أمين ولدايفيز وللسرياني ولابن المنلا، وزبونات تانيين قلال جداً، أما الشغل الحقيقي ففي المطعم».

وحدثت الكارثة.

مات الكلب.

توقع غاندي موت كل الناس، إلا موت الكلب. كان غاندي مثله مثل جميع الناس يفكر بالموت، كان الموت بالنسبة له، يشبه والده المسجّى، والكفن مفتوح على وجهه، والدمعة معلقة في أسفل عينيه. كان يفكر في موت زوجته وموت الناس الآخرين. عاش غاندي مع الموت، الولد يموت قبل أن يولد، الموت قبل الأشياء كلها. الموت هو الحياة. لكن موت الكلب لم يخطر بباله، وعندما مات الكلب، ورأى غاندي المستر دايفيز وهو يتحول إلى ما يشبه الشبح، ركبه الهمّ والخوف. حاول أن يعزّي الأميركاني، حاول أن يقول ما يقوله القسيس أمين عندما كان يزوره بعد الولادات الميتة المتتالية التي كانت تحصل لفوزية زوجته؛ «الله أعطى والله أخذ». حاول أن يعزيه، لكن المستر دايفيز صار كالمعتوه. يخبر كيف نزل القاتل وبصق، ويقول إنه سيسافر. وزوجته الشقراء، التي يتخلل شعرها نتف من الشيب كأنه

قطع من القماش المزروع على جلدة رأسها، زوجته منحنية ومتقوقعة في زاوية البيت، ولا تتحرك. وغاندي يدخل ويخرج، يقدم القهوة للمعزّين القلائل الذين أتوا الى البيت، ودايفيز يرفض أن يتعزّى.

مشكلة غاندي بدأت بعد يومين. ذهب إلى المطعم ليجد نفسه مطروداً. الرئيسة الأميركية قالت «خلص»، ولم تسمح له بالدخول. المدير العربي الذي أطل من فتحة الباب قال له «خلص، ما بقي فيه أكل. الكلب مات والعوض بسلامتك».

حاول غاندي أن يفاوضه. وعده بمضاعفة الست ليرات التي يدفعها كل يوم، وأن يعطيه نصف تنكة زيت كل ستة أشهر. الرجل رفض. يبدو أنه أراد أن يستأثر هو بالبقايا، أو لَزَّمها لشخص آخر. فكر غاندي أن يطلب من المستر دايفيز أن يتوسط له مع رئيسة المطعم. لكنه خاف من تكشيرته، سوف ينظر إليه باحتقار ويفكر بأنه نذل، الكلب يموت، وهذا الرجل لا يفكر إلا بمصلحته المادية الحقيرة، حاول أن يفاتح دايفيز بالموضوع، لكنه تراجع أمام احتمال نظرات الاحتقار من الأميركاني الطويل.

الفكرة جاءت من مدام ليليان.

كان جالساً على مدخل بيتها يصبغ أحذية زبائنه، عندما كلمها في الموضوع. لم يخبرها حكاية مطعمه في «النبعة». أخبرها، أن باب رزقه انقطع، وأن دايفيز صار كالأبله بعد موت كلبه «فوكس».

اقترحت عليه أن يربّي كلباً. في البداية رفض غاندي الفكرة بشكلٍ مطلق، شعر أن نباتاً غريباً يعربش على قدميه وأن جسمه يحكّه. وبعد يومين من التفكير الهادىء ونصيحة القسيس أمين اقتنع. ذهب الى

دكان خاص لبيع الكلاب في منطقة «الروشة»، ودفـع مبلغاً كبيـراً، واشترى «فوكس الصغير». كان فوكس الصغير يشبه فوكس الميت في كـل شيء. اللون نفسه، والنـظرة نفسهـا. نفس الحـركـات ونفس اللسان. حمله غاندي وذهب به إلى بيته في «النبعة». وهناك بكت فوزية. «شو هالذل»، قالت وبكت.

دايفيز رفض الكلب الصغير، وسعاد كادت تموت من الرعب عندما وجدته إلى جانبها في الفراش، وفوزية كانت تشطف البيت عشر مرات في النهار خوفاً من النجاسة.

حمل غاندي «فوكس الصغير»، وذهب إلى منزل دايفيز. لم يكن دايفيز في بيته. كانت زوجته الشقراء. عندما رأت الكلب بدأت تئن وتبكي. حاول غاندي الذي كان يضم الكلب إلى صدره أن يعطيها الكلب، لكنها رفضت أن تمسكه. أعطاها الكلب فلم تمدّ يدها. سقط الكلب على الأرض وبدأ يعوي في وسط البيت. ركض غاندي وراءه، اختفى الكلب تحت الكنباية وهو يعوي. انبطح غاندي أرضاً، على الموكيت البرتقالي، وسحبه. حمله من جديد، وخرج ينتظر المستر دايفيز على الطريق.

عنـدمـا جـاء دايفيـز ورأى الكلب قـال «نـو». وبـدأ يتكلم بالانكليزية. لم يفهم غاندي سوى كلمة «نو»، ورأى الخوف والذهول في عيني الأستاذ الأميركاني. حمل غاندي الكلب وعاد إلى بيته.

عندما روى غاندي لأليس كيف قتل الكلب، كان يحاول أن يغيّر موضوع مقتل نهى عون. فميتـة مدام نهى أثارت الكثير من الضجيج في الحيّ. يومها قرّر ملكو السرياني أن يهاجر. أقفل دكانه لمدة أسبوع،

وقال للجميع إنه سيبيع ويهاجر إلى السويد، فالمدينة لم تعد لنا. صار الإنسان يموت وتنهشه القطط. مدام عون ماتت وحولها قططها الجائعة. ثلاثة قطط حول جثة امرأة. وعندما فحّت الرائحة، فوجىء الناس بمشهد القطط الغبراء المنفوشة الشعر، كأنها قطط وحشية.

مدام عون قبل أن تموت، كانت قد حسمت أمرها، وقرّرت الزواج من قسطنطين مخباط. في آخر تلفون لها معه، كان قسطنطين في المستشفى، يجري فحوصاً عامة، وطلب منها أن تأتي. وافقت، قالت إنها ستأتي وتتزوجه وتعيش معه. وحصن كان يعرف منذ البداية أن مدام عون ستتركه من أجل أن تتزوج. كان يعرف كل شيء. هكذا روى لريما، وربما صدقته. قال إنه لم يقتل المرأة وصدقته. لكن لا أحد صدقه. الزيلع صار يغمزه كلما رآه ويقول له «يا بطل». وغاندي صار يتحاشى الكلام معه، والمعلم أحمد صار يخاف منه.

روى غاندي لأليس كيف أعطاه القسيس أمين كمية الديمول، وقال له أن يخلطها مع الحليب. وكيف أنه حين يتذكر الحادثة يفكر بابنته، «لكن أعوذ بالله أعوذ بالله». أخذ الديمول وقرّر أن ينهي القصة كلها. ترنّح الكلب. شرب وترنّح وصار يتلاشى كأنه يريد أن ينام. نام الكلب، فحمله غاندي لفّه بالجريدة ورماه أمام المزبلة.

قال لأليس إنه تذكر الكلب كثيراً في الأيام الأولى من الحرب، عندما كانوا محاصرين في «النبعة»، ويشعرون بالاختناق من روائح القذائف التي كانت تنهال في كل مكان. وحين جاءوا إلى الحمرا تحسنت الأحوال. لم يعد من الممكن العودة الى مصلحة البويا. لم يعد أحد يصبغ حذاءه، كدنا نموت من الجوع، ونتبهدل، إلى أن حلّها الزيلع.

قال الزيلع إنه يجب تنظيم الوضع في الحيّ، وهكذا كان. وتحول غاندي إلى المشرف العام على النظافة في اللجنة الشعبية.

اسبيرو أبو طاقية حضر اجتماعاً واحداً للجنة ثم توقّف عن الحضور. قال للزيلع إنه معهم قلباً وقالباً، لكنه لا يحب التعاطي في السياسة.

فوجىء اسبيرو بالحضور في الاجتماع الأول للجنة. لم يجد أحداً من سكان الحيّ المحترمين. أبو سعيد المنلا تغيب، ومحمد العيتاني لم يحضر، وأولاد المقدسي اختفوا. فلم يبق سوى مجموعة من المهجرين والزيلع وغاندي البويجي ونسوان من ملهى «المونتانا».

«شو هاللجنة الخرائية»، قال اسبيرو للسرياني.

لكن حبيب ملكو لم يوافق على هذا الكلام. فملكو يعرف من خبرته العتيقة أن عليك أن تحني راسك في الحروب، هكذا قال للخوري يوحنا، وهو يحاول إقناعه بحضور إجتماعات اللجنة.

«إذا بتجي يا أبونا أنا بجي، وكلنا منجي».

الخوري فضّل البقاء على الحياد. «نحن على الحياد، معهم ومش معهم. بكرا الدنيا بتقلب يا ابني، لازم ما تقلب فينا. هلق تركهم. يسار وفلسطينية وما بعرف شو، ماشي، بس بكرا بتقلب. نحن هلق معهم، ولمن بتقلب رح نضل معهم، بس المهم ما تقلب فينا».

كل شيء انقلب.

تروي أليس أنها جاءت إلى الحيّ، وكان كل شيء فيه قد انقلب. جاءت بالصدفة. فهي بعد إقفال «البلو أب»، وجدت نفسها بلا عمل. غرفتها المفروشة في «عين المريسة» صارت عبئاً عليها، والحرب

بدأت. وبدأت هجرة الفتيات من بيروت. الهجرة بدأت يوم «السبت الأسود». في ذلك اليوم من كانون الأول سنة ١٩٧٥، اختلط كل شيء بكل شيء. هجم المسلّحون على الناس، وصار الموت. كان الكتائبيون بأقنعتهم في المدينة، يقتلون ويرمون الجثث. ومن يومها عمّت الأقنعة. لبس الجميع الأقنعة وماتت بيروت يومها لم تعد تستطيع أن تمشي، خرج المسلّحون كالمجانين، ولعلع الرصاص فوق الأبرياء. يومها بدأت الحرب ضد الناس، وصارت الجثث المرمية في الشوارع تنتفخ دون أن تجد من يأخذها إلى القبور.

تقول أليس إنه بعد ذلك بدأت هجرة الفتيات. كانت منطقة «عين المريسة» ترتجف في ذلك الليل المخيف، وانهالت القذائف على «الزيتونة» حيث البارات التي هجرها أصحابها. وبدأ الجميع يفكرون بالرحيل. أليس لم ترحل، فكرت أن تعود إلى «شكا». كانت تجلس في غرفتها وحيدة، وتفكر بالعودة إلى بيت لا تذكر منه شيئاً. لكنها لم تعد، بلى عادت مرة واحدة وكان كل شيء قد انتهى. عادت لترى والدها، لكنها لم تره. أخبروها عنه. أخبروها أنه صار في أيامه الأخيرة بحجم طفل، وأنه كان يبكي كل الوقت، وأن المرأة التي كانت تعيش معه، كانت تجلس إلى جانبه وتبكي. مات دون أن تراه. هي لا تذكر منه شيئاً. حتى وجهه لم تره تلك الليلة. كانت أليس صغيرة وكان العتم في كل مكان. ولم تر الوجه.

«أنا سامحته»، قالت أليس، «الله يسامحني لأني سامحته. مات وما شفته، وعاش وما شافني، الواحد ما بيعرف، وقت بيعرف ما بيعرف. وقت إجا راح، ووقت كان بدي ياه كان كل شي خلص. الاشيا بتخلص وقت لازم تبلش. مثل الكذب، كل هالعيشة مثل الكذب».

أكملت أليس الكذب. قالت إنها قبلت العمل في «المونتـانـا» لأنه لم يكن هناك حلّ آخر. وهي صارت كالشحاذة. مرة قال لها الزيلع إنها شحاذة، قال لهـا إن أسوأ شيء في النساء أنهن ينتهين شحاذات. وشكر ربه لأنه رجل. قالت له أليس إنهـا ليسـت متأكدة أنه رجل. فالرجل لا يفعل ذلك. يومها كان قد ضربها في البار أمام كل الناس، ويومها بكت أليس أمام كل الناس، وقررت أن لا ترجع إلى الشغل. لكنها رجعت.

«خادمة في بار أفضل من ميتة»، قالت لغاندي.

وغاندي يوافق معها، ويقول لها إن الحياة صعبة، وإن سعاد تكاد تجنّنه، وأنه خائف عليها.

وعندما وجدت «فيتسكي» ميتة في شقتها الصغيرة، لم يجرؤ أحد على الدخول إلا أليس. كلهم خافوا. يومها أمسكت أليس بمدام ليليان وقادتها إلى الداخل، وبـدأت ليليان تـولول كـالمجنونـة، وشرشحت القسيس أمين، الذي كان قد بدأ رحلته إلى العالم الثاني بعد أن هجرته زوجته.

تجلس أليس وحيدة في فندق «سالونيكا»، لا تجد لنفسها عملاً حقيقياً. حتى تنظيف الغرف صار مستحيلاً، تجد صعوبة في الإمساك بالمكنسة، يداها ترتجفان، وصـاحب الفندق ينـظر إليها بعـطف كله كذب.

كان عبد الحكيم المصري، يتحسر على أيامه في هذه البـلاد فهذا الفندق كان ملتقى الذوات. كان واحة، كأنه واحة. يأتيه الكويتيون وأهل الخليج ليناموا فيه ليلة واحدة. وكان عبد الحكيم صاحب الليلة

الواحدة. الآن ماذا يجري؟ تحوّل الفندق إلى خرابة، وهو لا يستطيع أن يتركه، يتركه ويخسر الثروة التي وضعها في حجارته حجراً حجراً. يبقى، كما يقول، لأن الحرب ستنتهي وسترجع الأشياء.

وأليس تقول إن الأشياء لا ترجع. تعيش في الفندق مع مومسات متقاعدات، أربع مصريات، وواحدة حلبية، وثلاث نساء من بيروت، يبحثن عن العمل، فلا يجدن سوى رفقة الجنود والمسلّحين الذين يدفعون القليل إذا دفعوا، ويتحول الفندق إلى ما يشبه المأوى.

قالت أليس إنها ترى أن الفندق اليوم صار شبيهاً بالمأوى الذي أخذت القسيس أمين إليه. هناك رأت الراهبة التي تشبه هذا الرجل، وتشير إلى عبد الحكيم المصري، والرجال وهم يتداعون على كراسي لها عجلات، وتشم رائحة الخرا في كل مكان. وهنا أيضاً، رائحة الخرا لا يمكن أن تزول.

«اشطف كل شيء بالصابون، لكن وقت بتعيش في الخرا، كيف بدك أنه الريحة تختفي».

سألت أليس عن حصن، وعن علاقته بمقتل نهى، فقالت إنها لا تعرف. قالت: «حصن مش أكيد أنه قتل، صحيح في فترة عمل حاله مقاتل، بس ما قاتل. حصن ما حارب. حمل بارودة متل كل الناس، بس ما قاتل. أنا مابعرف حداً قاتل. كلهم ما قاتلوا. شو هالحرب يللي ما حداً فيها قاتل وبعدها ماشية. حرب ماشية بلا هدف. حصن ما حارب، حمل بارودة وأجلّك صار للخرا مرا صار يحلف عليها بالطلاق. بس هو كان ملهي بصالون الحلاقة. حمل بارودة غصب عن بيّه.. بس شو عمل، ماشي، قال نزل كم يوم وحارب بالأسواق التجارية، أنا شفته عم يحمل أغراض مسروقة هو والزيلع. نزلوا

وسرقوا، ما حداً حارب. يللي حاربوا كلهم ماتوا، ويللي ما حاربوا ماتوا. كله موت بموت يا ابني، شو هالقصة».

سنتان وأليس تعيش في فندق «سالونيكا»، «المونتانا» فتح أبوابه بعد الانسحاب الاسرائيلي من بيروت، الذي أعقب مذبحة «شاتيلا وصبرا» لكن أليس لم تعد إلى «المونتانا» إحدى الفتيات المصريات قالت لها إن الزيلع رجع وسأل عنها. أليس قالت: «خلص، أنا على التقاعد، رح ابقى بالاوتيل وموت بالاوتيل». وبقيت في الأوتيل. وعندما ذهبت إلى الفندق بعد أن تجددت الحرب عام ١٩٨٤، لأسأل عنها لم أجد أحداً. كان الفندق مخرباً، وبعض المسلّحين يحومون حوله. لم أجرؤ على أن أسأل المسلّحين عن أليس أو عن عبد الحكيم المصري، عدت إلى البيت وقررت أن أذهب إلى الزيلع لأسأله.

في «المونتانا» لم أجد الزيلع. وجدت رجلاً يشبهه. أليس وصفته لي، قالت إنه أسمر، له سن أمامية مكسورة، رقبته غليظة، وصوته خشن ومنخفض كأنه يخرج من أسفل بطنه. رأيت على مدخل «المونتانا» رجلاً له هذه المواصفات فسألته عن الزيلع.

«أي زيلع يا حبيبي».

«حسن الزيلع، القبضاي، تبع المونتانا، مش أنت»، جاوبته.

«ما في زيلع».

«الله يخليك، أنا عم فتش عن واحدة إسمها أليس».

«أليس شو»؟

«ما بعرف: أليس المرا يللي عمرها شي ٦٠ سنة، وكانت تشتغل هون وتبيع زهور».

«أيا زهور، نحن ما منبيع زهــور».

«طيب حصن، بتعرف حــصــن».

«شو أنت بوليس، فاتح معي تحقيق، هيدا بار اسمه المونتانا، وما في لا أليس ولا حصن ولا زهـور، فيـه شـراميط، بتحبّ نـظبـطك منظبّطك، ومنراعيــك كمان».

ضاعت أليس، كلهم ضاعوا.

حتى ريما، لم أعثر لها على أثر. قالـوا إنهم رأوها مـرة واحدة. جاءت إلى بيت اسبيرو أبو طاقية لتسأله عن حصن، فقال إنه لا يعرف.

كان اسبيرو يتألم في سريره، قالوا إنه مصاب بسرطان الرئة. كان يطلب دائماً أن يرى اسبيرو الصغير، الذي لم يكن اسمه اسبيرو، ويئن في فراشه، ويمسك أيقونة العذراء ويصرخ «يا أم النور»، وأم النور لا تجاوبه.

جاءت ريما مرة واحدة لتزوره وتسأله عن رالف، لكن رالف لم يكن هناك. لم يعرف اسبيرو من هو رالف هذا. وعندما قالت له اسمه الآخر، هزّ رأسه وقال لها إن مدام عون تألمت كثيراً قبل أن تموت. قـال إنه رآها في منامه، وكانت تقف تحت دوش ينزل منه الدم. وصار يبكي.

غادرت ريما ولم تعد. ولم يرها أحد بعد ذلك في الحيّ.

أما حبيب ملكو فقد هاجر. اختفى من الحيّ، ثم رأى الناس الدكان يفتح من جديد، وبداخله رجل جديد وبضائع جديدة. باع ملكو كل شيء وسافر إلى السويد.

ولم يبق أحد.

منزل غاندي الصغير، استعاده صاحب الملك، بعد أن دفع للزيلع مبلغ عشرين ألف ليرة. أخذ الزيلع المال، وباع أغراض غاندي الصغير وأعاد البيت إلى صاحبه الذي أجره كمخزن للأدوية.

كانت بيروت مختلفة في ذلك الصباح. كان الصباح يحمل رائحة الموت. مسلحون في كل مكان وحركة، كأن الذين ماتوا لم يموتوا، كأن الحرب لم تنته، كأنها بدأت.

- ٦ -

قالت أليس إنه مات.

«جئت ورأيته، وغطّيته بالجرائد، ولم يكن أحد. زوجته اختفت، كلهم اختفوا، وبقيت وحدي».

قالت أليس إنها أخذته إلى المقبرة، ورأت الناس بلا وجوه. «صار الناس بلا وجوه»، قالت لي. تكلمت معهم ولم تسمع أجوبتهم، ثم تركتهم وراحت. وهكذا انتهت الحكاية.

«أخبريني عنه»، قلت لها.

«كيف أخبرك»، جاوبتني. «أنا كنت أعيش معه ولا أعرف. عندما تعيش لا تنتبه. أنا لم أنتبه لشيء، فقط لا أعرف». هزت رأسها ورددت جملتها «بعرف أنه راح وراح ببلاش».

أذكر كلمات أليس وأحاول أن أتخيل ما حدث، فأكتشف ثقوباً في الحكاية. كل الحكايات ملآنة بالثقوب. لم نعد نعرف أن نروي الحكايات. لم نعد نعرف شيئاً. وحكاية غاندي الصغير انتهت. الرحلة انتهت، والحياة انتهت.

هكذا انتهت حكاية عبد الكريم حصن الأحمدي المغايري، الملقب بغاندي الصغير.

في آخر لقاء لي مع أليس قالت إنها ستسافر. كانت حزينة وتنظر إلى الأشياء نظرة مختلفة، كأنها لا ترى الأشياء، أو كأن الأشياء أفلتت من يديها وذاكرتها. كانت تكثر من شرب العرق، وتتشاجر مع عبدالحكيم ونزلاء فندقه. وتخرج كثيراً كي تتمشى على شاطىء البحر، قرب مقهى «الحاج داوود»، الذي تحول إلى ركام. تعود في المساء، ولا تشتغل في تنظيف الغرف. ولا تفعل شيئاً. عبد الحكيم المصري طلب منها أن تساعده في إيجاد فتيات، فضحكت.

«روح يا ابني، البنات كلهم مع العسكرية، روح شو أنا دولة».

أليس ليست دولة. تمشي وحيدة ولا تتكىء على شيء. لا تنام إلا قليلاً. تنهض في الخامسة صباحاً وتخرج إلى كورنيش البحر وتمشي. وحين تتعب تجلس وحيدة على حجر وتذهب عيناها إلى البعيد.

بِم كانت تفكر. هل كانت تستعيد تلك الأيام التي ذهبت. هل كانت ترى نفسها بعيني نفسها. أم كانت تأخذها الذاكرة إلى عيون لا تراها. فتستعيد وهج تلك الأيام التي انتهت، فأنهت معها آخر قطرات الحياة.

أليس لم تكن تفكر بشيء، فهي تكذب. قلت لها إنها تكذب، لا لم أقل لها، عندما قالت لي «إنني كلني كذب» خطرت في بالي فكرة أنها تكذب عليّ، وتأكدت أنها تكذب، عندما عرفت أن حكاية الزعيم الأوحد يعرفها كل الناس، وينسبونها إلى أكثر من امرأة.

أليس تعرف. فهي عندما أخذت القسيس أمين إلى دار العجزة، اكتشفت أن الأشياء تذهب كأنها لم تكن. وعندما عادت سألت غاندي الصغير عن القسيس أمين عندما كان شاباً. غاندي لم يعرف أن يجاوب. جاوب بكلمات مختصرة كأنه لا يذكر شيئاً.

هل كان أمين أم لم يكن، هل كانت هي، وما هو الفرق.

سألتها إذا كانت تذكر التفاصيل. سألتها عن الحكايات، فاكتشفت أنها لا تذكر شيئاً، كأنها لا تريد أن تتذكر.

قالت لي، «عبد الحكيم الكلب لا يعرف مين انا. بلى يعرف، لكنه لا يعرف. فالإنسان ابن ساعته»، قالت إن الانسان ابن ساعته.

وهي منذ أن رأت ساعة غاندي وصورة زوجته وابنته وهما تغادران وسط ذلك المطر الذي لفح بيروت صبيحة ١٥ أيلول ١٩٨٢، صارت مختلفة، صارت لا ترى الأشياء إلا في اللحظة نفسها. أخذته وحدها إلى المقبرة كأنه قريبها. لم يكن معها أحد. وحدها دبّرت الشيخ والتابوت والكفن. وقالت لهم في مستشفى دار العجزة الاسلامية أن يغسلوه، قالوا لا، الشهيد لا نغسله، دمه يغسله. «بس هو فقير وما خصّه». قالوا شهيد. أخذته ودفنته دون غسل، غسلته الأمطار والوحول والطلقات. كأنه لم يكن. حتى وجهه امحى من ذاكرتها، وجوههم كلهم امحت. لا تذكر منهم سوى لمحات صغيرة، تأتي وتتلاشى في الذاكرة.

أليس لم ترجع الى «المونتانا»، اكتشفت أن قدميها ما عادتا تستطيعان، وأن الليل ما عاد ليلاً، صار الليل مكشوفاً كبطيخة مكسورة. وصارت الأيام مليئة بالتبن. الذي كان يزعجها هو أن طعم فمها بدأ يتغير. قبل أن يتغير الطعم في فمها لم تكن تعرف أن للفم هذه الأهمية، وأن اللسان حين يتخشب ويثقل في الفم، يصبح عبئاً على الانسان. كان لسانها ناشفاً، وكانت تخشى من طعم فمها الذي يعطيها هذا الشعور بأن الموت يقترب.

مرة واحدة حدثتني عن موتها. قالت أشياء لا أذكرها ولا أستطيع

تأليفها. قالت عن الموت إنه نهاية الراحة، الموت هو بداية التعب. لم أفهم ما قصدته إلا حين ذهبت لأبحث عنها في مأوى العجزة في الأشرفية. ذهبت وسألت عن القسيس أمين، فخرجت لي الراهبة ذهبت فعرفت أنني لا أعرف شيئاً. كل شيء تغيّر. بعد عشر سنوات من الحرب تغيّرت الأشرفية. «الجبل الصغير» لم يعد جبلاً، صار مثل الطرقات التي لا نعرفها. وجوه الناس تغيّرت. حتى الرائحة، عليها إلا في مقبرة مار متر.

سألت الراهبة فقالت إنها لم تسمع باسم القسيس أمين من قبل، وإنهم لا يستقبلون من خارج الطائفة. أخبرتها أن أليس جاءت به سنة ١٩٨١، وحاولت أن أصف الرجل الذي لم أره مرة واحدة في حياتي. قالت الراهبة إنها لا تعرف شيئاً، وهي هنا منذ عشرين سنة. ولم ترَ قسيساً بروتستانتياً في حياتها. قلت إن الرجل كان خرفاً، ربما نسي اسمه، ربما كان هو باسم آخر، وحاولت أن أتذكر الكلمات اليونانية التي أخبرتني أليس أنه كان يصليها طيلة الوقت.

سألتها عن أليس، هل جاءت إلى المأوى.
سألتني عن اسم عائلتها.
قلت لا أعرف.
سألتني عن أقربائها.
قلت لا أعرف.
سألتني من تكون
قلت لا أعرف.

قالت الراهبة إنني أسأل عن أسماء وهمية، وانها لا تعرف لا أليس ولا القسيس، وشككت في قدراتي العقلية.

سألتها أين يدفنون موتى المأوى، قالت إنهم لا يدفنونهم، يأتي أقاربهم ويتولون ذلك.

والذين لا أقرباء لهم، سألت.

هؤلاء ندفنهم في مقبرة المأوى، ثم يؤخذون منها بعد سنة أو أكثر حسب تحلّل الجثث، ويوضعون في بئر.

سألتها إذا كانوا يكتبون أسماء الموتى، على مقبرة المأوى.

قالت لا، وسألتني لماذا أسأل هذه الأسئلة، فابتسمت. قالت الراهبة إنني مختلّ، وانني أسأل عن أشياء غير موجودة. ربتت على كتفي وقالت إن الحرب قد أفقدت الجميع عقولهم، وقدمت لي فنجان قهوة، فشربته على عجل فاحترق لساني، وغادرت المأوى.

ذهبت إلى مقبرة مار متر. بحثت بين المقابر المنتشرة تحت أشجار السرو، قرأت كل الأسماء. وعلى قبر شبه متهدّم، بلاطه الأبيض تحوّل إلى لون أغبر، رأيت صورة أليس. اقتربت فقرأت اسماً آخر. لكن الصورة المحفورة على الرخام شبه الأبيض، تشبه صورة أليس صبيّة. هكذا كنت أتخيّل أليس في صباها، بوجه ممتلىء، وشفتين سميكتين، وأنف صغير مرتفع، وعينين كبيرتين. اقتربت من أليس، أو من هذه التي اعتقدت أنها أليس، فقرأت اسمي وقرأت اسم أمي وقرأت اسم جدي. كانوا كلهم هنا، لم أر وجهاً إلا وسبق لي أن رأيته، كأنه منام طويل لا أقدر أن أستفيق منه.

وقفت طويلاً هناك، ثم عدت إلى حيث أنا. إلى خلف هذه الطاولة الخضراء وتحت هذا الضوء البرتقالي الذي يتلاشى فيه الضوء.

أغمضت عينيّ فرأيت غاندي. رأيت رجلاً قصيراً يمشي بين حيطان المدينة. كانت المدينة حيطاناً متقابلة، وكان الرجل القصير يمشي، علبة البويا معلّقة في رقبته، رأسه يطرطق بالحيطان، وهو يحاول أن يرى طريقه. يمشي بين الحيطان، ويمد يديه كأنه يسبح في ماء يدور به ويبتلعه إلى الأسفل.

الماء الذي يبتلعه يجرفني إلى القاع، إلى حيث أمضي، فأرى وجوههم كلهم: اسبيرو وفوزية وملكو وسعاد وعبد الحكيم ودايفيز، ونهى وليليان وقسطنطين وأبو عباس وطنوس، وأبو جميل وحصن وريما والشيخ زكريا والغجرية والكلب والدكتور عاطف والخوري يوحنا وأليس والسنبك ومقام أبو هريرة، والزيلع والزعيم الأوحد والفرد وفيتسكي وسمعان فياض وجده والمطران اثناسيوس والراهبة وجوزيف والمعلم أحمد والجبل الصغير وشكري الشاعر، والقديس اسبيريدونيوس وحميره، وأحذية الجنود السوداء، والجرائد التي هربت منها الكلمات، والباعة، وأبو سعيد المنلا ينام تحت صراخ مئذنته، وملكو المهاجر إلى السويد، واسبيرو الصغير الذي اسمه نبيل.

أراهم وأرى وجوه الجنود، من أين امتلأت المدينة بهؤلاء الجنود. المدينة تنوص، أشجارها تحترق والجنود يشعلون فيها النار.

قلت لأليس لكنها لم تكن معي. وعدتني أن تأتي معي. وعدتني أن تأخذني كي أزور الجميع. لكنها لم تأت. حين قررت أن أتعرف عليهم اختفت، وحين ذهبت كي أبحث عنها لم أجد القبر. تركتني دون أن أعرف شيئاً، أخذت كل المعرفة وراحت.

حين أرويها لا أروي شيئاً. أروي عنها ولا أرتوي. وأذهب في

رحلتي اليها، ولا أجدها. أجد كلمات تتدلى مثل حبل، أتسلق الحبل فأنزلق، وحين أرتطم بالأرض، أرى الجدران تنطبق والمدينة تهاجر.

لم تخدعني أليس. كذبت عليّ كثيراً، كانت تعرف أنني أريد حكايات كي أستمع الى حكايات. أسمعتني ما أريد، وحين أردت أن أتوقّف عن سماع الحكايات، اكتشفت أن الحكايات ماتت تحت قلمي.

- ٧ -

هكذا انتهت الحكاية.

كان غاندي الصغير، رجلاً عاش ومات، كما يعيش ملايين الرجال، على وجه الأرض التي تدور.

ولد في «مشتى حسن»، هرب من والده الذي أخذه الى مغارة جده، اشتغل في فرن المفتاح في طرابلس، هاجر إلى بيروت ،حيث اشتغل في مطعم أبو عيون، ثم ماسح أحذية. تزوّج وأنجب ولدين: حصن وسعاد. حصن كان حلاقاً، وسعاد كانت مريضة. أحب الحياة وأحب طعمها. أليس أخبرته، والقسيس أمين صادقه، ودايفيز حوّله إلى صاحب مطعم، والكلب مات، وغاندي حزن على الكلب أكثر مما حزن على والده.

مات غاندي.

مات حين سقطت بيروت تحت الأحذية السوداء. لم يكن يعرف أنه مات. شعر بالموت قبل أن يأتي، ثم حين مات لم يعرف. فطلقات الرصاص لم تؤلمه، والموت جاء خفيفاً مثل حلم قصير لا يمضي.

مات غاندي، وتحوّلت أليس إلى خادمة في فندق «سالونيكا». والقسيس أمين خرف وانتهى في مأوى للعجزة. الأميركاني عاد إلى بلاده، وملكو هاجر إلى السويد، واسبيرو مات وهو يطلق على حفيده اسم اسبيرو

رحلة طويلة، لأنها قصيرة.

الرحلات دائماً، تطول لأنها تقصر. والرجل الذي غامت به الدنيا، حاول أن يأخذ الحياة تحت كبّوته، الطبيب ضحك على الكبّوت، والصيدلي صار كالمهرّج، وغاندي مات.

لم يكن اسمه غاندي.

عبد الكريم بن حصن بن عبد الكريم بن حصن بن عبد الكريم بن حصن، وتمتد السلالة الى أيام سيدنا نوح.

أسموه غاندي ولم يعرف لماذا.

لكنه عرف لماذا مات، عرف أن الرصاصات لم تكن موجّهة له، بل كانت موجهة الى قلب مدينة هدمت نفسها، لأنها مثل غاندي، كانت تحاول أن تصنع من اسمها حكاية.

والحكاية هي لعبة أسماء. «وعلّم آدم الأسماء كلها». عندما عرفنا الأسماء بدأت الحكاية، وعندما انطفأت الأسماء بدأت الحكاية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

للمؤلف

روايـات :

عن علاقات الدائرة ١٩٧٥ ، ١٩٨٥ .
الجبل الصغير ١٩٧٧ ، ١٩٨٤ .
أبواب المدينة ١٩٨١ .
الوجوه البيضاء ١٩٨١ ، ١٩٨٦ .
المبتدأ والخبر (قصص) ١٩٨٤ .

دراسـات :

تجربة البحث عن أنت ١٩٧٤ .
دراسات في نقد الشعر ١٩٧٩ ، ١٩٨١ ، ١٩٨٦ .
الذاكرة المفقودة ١٩٨٢
زمن الاحتلال ١٩٨٥ .